350

HARLEQUIN

روايات أحلام

سأبقى وحدي

لوسي غوردون

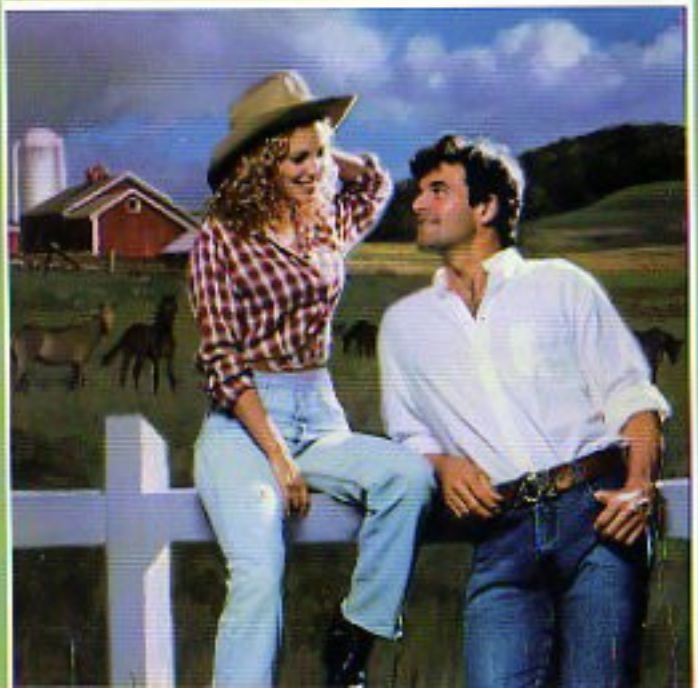

لوسي غوردون

بدأت لوسي غوردون عملها في مضمار الكتابة، ككاتبة صحفية في عدة مجلات. أجرت مقابلات مع أكثر الرجال شهرة في العالم بمن فيهم «ورن بتي»، «ويتشرد تشامبرلين»، «روجر مور»، سير «أليك غينيس» وسير «جون فيلغاد». واختبرت في رحلة سفاري إلى إفريقيا، الحياة في العراء مع الأسود، كما عاشت مغامرات غرية كثيرة شكلت خلفية غنية لرواياتها.

تزوجت من إيطالي التقته في عطلة كانت تقضيها في فنيسيا. عقدا خطبتهما بعد يومين على اللقاء وهما متزوجان منذ خمس وعشرين سنة. يقيمان الآن في «ميدلاندز» مع كلابهما الثلاثة.

نال كتابها His Brother's Child، جائزة الكتاب الروائيين الأميركيين سنة ١٩٩٨، في فئة أفضل رواية عاطفية تقليدية.

١ ـ انا هنا

ـ سيلينا، أنت تحتاجين إما إلى معجزة، وإما إلى مليونير.

خرج بن من تحت السيارة المعطّلة، وهو يحمل المفتاح الإنكليزي في يده. بدا نحيلاً كهلاً، وقد أمضى ثلاثين سنة من عمره في العمل كميكانيكي للسيارات. وهذه السنوات الثلاثون جعلته يدرك الآن أن سيلينا غايتس تريد منه إعادة إحياء جثة هامدة.

قال بكآبة وهو يتأمّل الشاحنة المقفلة الصغيرة: «لا، لا جدوى من هذا الشيء».

فراحت سيلينا ترجوه: «لكن بإمكانك أن تجعلها تعمل مجدداً. أعلم أنك تستطيع ذلك يا بن، فأنت عبقري».

ـ كفّي عن ذلك.

قال هذا بصرامة غير مقنعة، ثم أضاف: «لن ينفع هذا الكلام معي».

فردّت صادقة: «الطالما نفع. يمكنك إصلاحها، أليس كذلك يا بن؟»

ـ حسناً، لكنها لن تقلك سوى لمسافة قصيرة.

ـ حتى ستيفنفيل؟

ـ ثلاثمائة ميل؟ لا تكوني متطلّبة! حسناً، قد تصل، لكن ماذا ستفعلين بعد ذلك؟

ـ عندئذ، سأربح بعض المال في الروديو.

ـ أستركبين تلك البهيمة المرهقة؟

فانفجرت قائلة: «أليوت ليس مرهقاً. إنه في ريعان شبابه».

إن ذكر أليوت الحبيب بمسّ وتراً حساساً لديها، وكانت سيلينا على وشك أن تدافع عه بشراسة عندما تذكرت أن بن يصلح شاحتها بكلفة زهيدة بحكم الصداقة التي تربطهما، فهدأت. إلا أنها قالت بعناد: «سأربح أنا وأليوت مبلغاً ما».

ـ سيلينا، ما من مال كافٍ في العالم لإصلاح هذه الخردة لتعود جديدة. كانت مهترئة عندما اشتريتها، وهي آخذة في التراجع. من الأفضل أن تجدي مليونيراً وتقنعيه ببعض الكلام المعسول ليشتري لك شاحنة جديدة.

عبست سيلينا قبل أن تجيب: «لا فائدة من ملاحقتي لأيّ مليونير، فأنا لا أملك المؤهلات اللازمة لذلك».

تأمّل قامتها الطويلة والنحيلة، ثم اعترف: «لعلك تفتقرين إلى الصدر الممتلىء فقط».

ـ بن، إني أفتقر إلى كافة المؤهلات.

ثم كشرت ساخرة من نفسها وأردفت: «ما من فائدة، فأصحاب الملايين يحبون النساء الكاملات والممتلئات الجسم، وأنا لم أكن يوماً هكذا. كما أنّ شعري ليس جذاباً، إذ يجب أن يكون طويلاً ومتموجاً وليس...».

وأشارت إلى شعرها القصير الأشبه بشعر الصبية. فقد بدا شعرها بلونه الأحمر ملفتاً يتوهّج كالنار، وكأنه يصرخ للعالم: «أنا هنا!». كان من المستحيل تجاهل سيلينا، فهي ذكية، وقحة، مستقلّة، ومتفائلة إلى حدّ الجنون. باختصار إنها فريدة من نوعها، ومن يحاول أن يتحدّاها سيتعلّم من ذات الشعر الأحمر درساً يقول له: احترس!

ثم تابعت سيلينا مقدّمة حجتها المفحمة: «كما أني لا أحب

أصحاب الملايين، فهم ليسوا أناساً حقيقيين».

حكّ بين جبينه وسأل: «ليسوا حقيقيين؟».

ـ لا، فهم يملكون الكثير من المال.

ـ الكثير من المال هو ما تحتاجينه الآن أو أنك تحتاجين إلى معجزة.

فردّت: «المعجزة ستكون أسهل. كن على ثقة يا بن بأنّ معجزة رائعة تتجه نحوي من مكان ما وستصل بطريقة ما».

* * *

مذ ليو كالثاني ساقيه بقدر ما استطاع، لكن المسافة لم تكن طويلة. استغرقت الرحلة من روما إلى أطلنطا اثنتي عشرة ساعة، وقد سافر في الدرجة الأولى.

ليس ليو من الرجال الذين يختارون «الدرجة الأولى» عند السفر، مع أنه ثري ويمكنه أن يختار الأفضل من دون أيّ مشكلة، لكن التكلّف يثير عصبيته. وينطبق هذا أيضاً على المدن والثياب الأنيقة. لهذا، اختار أن يسافر وهو يرتدي بنطلونه الجينز القديم وسترته، وينتعل حذاءً بالياً. فهذه طريقته ليعلن للعالم أن «الدرجة الأولى» لن تصبح عادة لديه.

وأخيراً، حطت الطائرة في أطلنطا. سيتمكّن قريباً من مطّ ساقيه وإن لبضع ساعات فقط قبل أن يحشر قامته المديدة في الرحلة المتوجهة إلى دالاس.

* * *

خفّض بن الفاتورة إلى أقصى حدّ ممكن لشدة ولعه بسيلينا. وكان يعلم أنها ستنفق الدولارات القليلة المتبقية لديها على أليوت. وإذا ما تبقّى معها أيّ مال فستشتري به بعض الطعام لنفسها، لكن إذا لم يتوفّر لها تذمرت ولاستغنت عن الأكل. ساعدها في تعليق عربة الجواد

بالشاحنة من الخلف، ثم تمنى لها الحظ وراح يراقبها وهي تخرج بحذر من باحة مرآبه. وعندما اختفت، رفع صلاة إلى الإله الذي يسهر على الشابات المجنونات اللواتي لا يملكن سوى حصاناً وشاحنة مهترئة، وقلباً كقلب الأسد والكثير من العناد.

* * *

عندما صعد ليو على متن الطائرة في مطار أطلنطا، كان التعب قد تملّك منه فنام نوماً خفيفاً حتى موعد الهبوط. وفيما كان يحطّ قامته المديدة، أقسم ألّا يركب الطائرة مجدداً في حياته، وهذا ما يفعله بعد كل رحلة يقوم بها. وما إن تجاوز جهاز الجمارك حتى سمع صوتاً هادراً: «ليو، أيها الفتى...!».

أضاء وجه ليو لرؤية صديقه يتقدّم نحوه فاتحاً ذراعيه.

ـ بارتون، أيها العجوز!

وفي اللحظة التالية، كان الاثنان يلكمان بعضهما البعض بسعادة.

بارتون هانوورث في الخمسينات من عمره، وهو رجل محبّ، أشيب، يخفي طوله الكرش الصغير الذي بدأ في الظهور أمامه. أما صوته وضحكته فيتميزان بالضخامة، تماماً كسيارته ومزرعته وقلبه.

حرص ليو على تأمّل السيارة بتمعّن. ففي الأسابيع الستة الماضية، أي منذ تقررت رحلته، تحدّث إلى بارتون مرات عدة عبر الهاتف. ولم يفوّت صديقه فرصة واحدة للتكلّم عن «طفلته المدلّلة الجديدة»، فهي الأحدث والأجمل والأسرع. لم يأتِ على ذكر السعر، لكن ليو تحقق من الأمر عبر الإنترنيت وتبيّن له أنها الأغلى ثمناً. لذا، أدرك واجباته فراح يطري على الجميلة الفضية اللون والكبيرة الحجم، فكافأه صديقه بابتسامة عريضة مشعّة.

ولم يتطلب وضع حقائبه القليلة في السيارة سوى دقائق، لينطلقا بعدئذ في رحلة تستغرق ساعتين إلى المزرعة قرب ستيفنيل.

سأل بارتون وعيناه على الطريق: «لِمَ سافرت من روما؟ ظننت أن بيزا أقرب إليك».

فأجاب ليو: «كنت في روما أحضر حفل خطوبة فريبي ماركو».

ـ أتظن أن مصير هذه الخطوبة سيكون كمصير خطوبته السابقة؟

ـ ربما. إلّا إذا أدرك سريعاً أنه متيّم بهاريت.

ـ وماذا عن أخيك؟ ألا يسلك الدرب نفسه؟

ـ آه، غويدو يملك من الحسّ السليم ما يجعله يدرك أنه يتصرّف بجنون حين يفعل. إنه بخير ودولسي ممتازة وهي تناسبه.

فقال بارتون ضاحكاً: «إذن، لم يبقَ سواك حراً؟»

ـ أنا حرّ وسعيد بذلك. ولن تتمكّن إحداهن من الإمساك بي.

ـ هذا ما يقوله الجميع، لكن انظر من حولك. فالرجال الجيّدون يتساقطون كالثمار الناضجة.

ـ نعم، طبعاً!

وعندئذ، ضحك الاثنان معاً. كانت ضحكة ليو بهيجة، مليئة بالشمس والحرّية، ومفعمة بالحيوية والحياة. إنه رجل يحبّ الأرض ويسعى غريزياً إلى الهواء الطلق. يظهر ذلك في عينيه وجسده الضخم المسترخي، كما يظهر خاصة في ضحكته.

قبيل الوصول إلى ستيفنيل، راح بارتون يتأهب، وقال: «إن النظر إلى مؤخرة حصان طيلة هذه المدة يصيب عينيّ المرء بالحَوَل».

إذ كانت تتقدمهما قاطرة جياد قديمة مهترئة تعرض كفل فرس عريضة، وهي تسير أمامهما منذ مدّة.

وعاد بارتون يقول: «المسافة لم تعد طويلة في الواقع. وهذا من حسن حظّنا، فمن يقود هذه الشاحنة لم يتعدّ سرعة الخمسين. لتتجاوز!».

وزاد من سرعته لتجاوز الشاحنة. نظر ليو من نافذته فرأى

المقطورة ومن ثم الشاحنة الصغيرة أمامها، ولمح السائق، وهي امرأة شابة، شعرها أحمر لامع. رفعت نظرها إليه لبرهة، ورأته ينظر إليها.

ما حصل بعد ذلك أصبح موضوع خلاف بينهما لاحقاً، فهي تقول دوماً إنه غمزها، فيما يقسم هو أنها غمزته أولاً. وتقول هي إن الأمر مستحيل! ولا بدّ من أنها خدعة من الضوء، وأنّ رأسه مليء بالأوهام... ولم يتمكنا من حلّ هذا الخلاف أبداً.

بعدئذ، خفّف بارتون من سرعته بعد أن تركاها خلفهما. فسأله ليو: «هل رأيت هذا؟ لقد غمزتني. بارتون؟ بارتون!».

ـ حسناً، حسناً. إني أريح عينيّ للحظة. لكن، لعلّ من الأفضل أن تتحدّث إليّ، كنوع...

ـ لتبقى مستيقظاً؟ حسناً، لا أظن أن تجاوز الشاحنة تركنا بحال أفضل.

قال ليو هذا وهو يراقب شاحنة أخرى كانت تتقدمهما، وهي تتحرك بشكل غريب، منتقلة من مسارٍ إلى آخر. انحرف بارتون نحو اليمين ليتجاوزها، لكن الشاحنة انحرفت في الوقت نفسه لتسدّ أمامه الطريق ما اضطرّه إلى العودة إلى الخلف. كرّر المحاولة ثانية، ولكن الشاحنة انحرفت مجدداً ثم أبطأت سرعتها بغتة.

صرخ ليو بسرعة حين لم يقم صديقه بأيّ رد فعل: «بارتون!»

وفي اللحظة الأخيرة تنبّه بارتون وحاول التجاوب مع الوضع. لكن الأوان قد فات، إذ لم يعد بإمكانه أن يخفف سرعته تدريجياً، ما اضطره إلى التوقف على الفور، فداس على المكابح ليوقف السيارة في الوقت المناسب. إلّا أن الشاحنة الصغيرة خلفهما لم تكن محظوظة بقدرها، وتعالى فجأة صوت مكابح، ثم صوت ضربة تلته هزّة أصابت السيارة، لتنتهي السلسلة أخيراً بصرخة غضب وألم. أما الشاحنة التي تسببت بالمشكلة فانطلقت في طريقها، وقد بدا سائقها غافلاً عما

جرى. ترجّل الرجلان من السيارة وأسرعا إلى الخلف لتفقّد الأضرار، وما رأياه روّعهما.

رأيا انبعاجاً عظيماً في مؤخرة السيارة مصدر فخر بارتون وسروره، انعكس على مقدمة الشاحنة الصغيرة. لكن الأمور كانت أسوأ عند مؤخرة الشاحنة، فالتوقف المفاجىء أدّى إلى انحراف المقطورة واصطدامها بالشاحنة بقوة ألحقت الضرر بهما معاً. كانت المقطورة مقلبة جزئياً وتستند مترنّحة إلى الشاحنة، فيما الحيوان المذعور في داخلها مهتاج يكمل عملية التكسير.

راحت الشابة ذات الشعر الأحمر تكافح لإعادة المقطورة إلى وضعها الصحيح، وهي مهمة مستحيلة، لكنها استمرت في محاولاتها بقوة شديدة الاهتياج.

صرخ بها ليو: «لا تفعلي هذا، فسوف تؤذين نفسك».

فالتفت إليه مجيبة: «لا تتدخل!»

كانت جبهتها تنزف، فقال: «أنت مصابة، دعيني أساعدك».

ـ قلت لك ألّا تتدخل، ألم تفعل ما فيه الكفاية؟

ـ اسمعي، لست أنا من كان يقود السيارة. على أيّ حال، لم تكن...

ـ ومَن يهمني من كان يقود؟ فأنتم كلكم متشابهون. تسرعون في سياراتكم اللامعة كما لو أنكم تملكون الطريق. كدتم تقتلون أليوت.

ـ أليوت؟

وجاءه الرد على شكل تحطّم آخر داخل المقطورة. وفي اللحظة التالية، وقع الباب وخرج الجواد لتنهب حوافره الأرض. ركض ليو والفتاة خلفه في محاولة منهما للإمساك به، لكنه فرّ منهما واتجه إلى وسط الطريق السريع. ومن دون أيّ تردد، لحقت الفتاة به متجاهلة حركة السير. قال ليو بعنف وهو يلحق بها بدوره: «امرأة مجنونة!».

وتعالت أصوات مكابح أخرى وانهالت الشتائم من سائقين غاضبين على ليو، لكنه تجاهلهم وركض خلفها مجنون. حكّ بارتون رأسه وتمتم: «كلاكما مجنون».

ثم أخرج هاتفه الخلوي من جيبه.

ومن حسن حظهما، أن إصابة أليوت كانت طفيفة ما جعله غير قادر على العدو بشكل سريع. لكنه كان مصمماً على عدم السماح لهما بالإمساك به، وذلك لسوء حظهما. وما لم يستطع أن يحققه بالسرعة حققه بالمكر، فراح يدور هنا وهناك حتى اختفى بين مجموعة من الأشجار. وصاح ليو: «اذهبي في هذا الاتجاه فيما أسلك أنا الاتجاه الآخر، لنتمكّن من الإمساك به».

وفي اللحظات التالية، بذل ليو جهداً إضافياً، مصدراً الأمر لساقيه لكي تسرعا أكثر. وأطاعته ساقاه، فنجح في الإمساك بلجام الجواد على بعد خطوات من الطريق.

نظر إليه أليوت بحذر، لكن يبدو أن كلمات ليو المهدئة الأولى أحدثت التأثير المطلوب. لم يكن قد سمع هذه الكلمات من قبل لأنها بالإيطالية، لكن صوت ليو صوت رجل يحب الجياد، ويتكلم لغة المحبة العالمية. وهدأ هيجان أليوت فوقف في مكانه، عصبياً ومرتبكاً إنما مستعداً للوثوق به.

لاحظت سيلينا كل هذا وهي تقطع المسافة القصيرة المتبقية. ولم تساعد السيطرة السهلة على جوادها في تحسين مزاجها، كما لم تساعد الخبرة التي أظهرها الرجل وهو يتفحص حوافر الحيوان ليقول أخيراً: «لا أظن أن الأمر أخطر من مجرد التواء بسيط، لكن الطبيب البيطري سيؤكد ذلك».

رددت بلهجة لاذعة: «مجرد التواء بسيط. ما كان هذا الالتواء ليحصل لو لم تتوقف سيارتك فجأة».

قال ليو وهو يتنفس بصعوبة بعد الجهد الذي بذله: «عفواً. أنا لم أفعل شيئاً لأني لم أكن أقود، بل صديقي. كما أن الخطأ لم يكن خطأه أيضاً، بل خطأ ذلك الرجل الذي خفف سرعته أمامنا، والذي رحل منذ زمن. لكن لو كان هناك عدل في العالم... تباً، ماذا تعرفين أنتِ عن العدل؟»

ـ أعرف عن جوادي المصاب وشاحنتي المتضررة. أعرف أنّ السبب في ما حصل هو أنني اضطررت إلى الدوس على المكابح في آخر لحظة...

ـ آه، نعم، مكابحك. يهمني جداً أن أتفحص مكابحك. أراهن على أنها مثيرة للاهتمام.

ـ أحاول أن تضع اللوم عليّ الآن!

ـ أنا...

ـ أعرف أمثالك. تقول في سرّك: «إنها امرأة وحيدة، ولا بدّ أنها ضعيفة وعاجزة. دعنا نحاول لنرى إن كانت ستخاف بسهولة».

فردّ ليو بصدق تام: «لم يخطر في بالي للحظة أنك تخافين بسهولة. أما بالنسبة للعجز، فقد رأيت رجالاً شجعاناً أكثر منك عجزاً».

وكان بارتون قد قطع الطريق ووصل إلى حيث يقفان: «انتظر لحظة يا ليو...».

كان ليو عادة من أكثر الرجال هدوءاً، لكن طبعه اللاتيني قد يظهر بشكل عنيف إذا ما أطلق العنان له.

ـ نحن هنا ألسنا كذلك؟ لذا، ضعي اللوم علينا و... و...

وكعادته دوماً عندما تخذله لغته الإنكليزية، استعان ليو بلغته الأم فاندفعت الكلمات من فمه كالموج الهادر في اللحظات التالية.

وأخيراً، صاح بارتون: «اللعنة يا ليو! هلّا توقفت عن التصرف بحساسية مفرطة و.. عن التكلم بالإيطالية؟»

فقال ليو: «أردت أن أعبّر عن مشاعري وحسب».

ـ حسناً، لقد فعلت. فلما لا نبدأ جميعاً ونتعارف؟

ثم استدار نحو المرأة الشابة وعرّف عن نفسه ببساطة وهدوء: «بارتون هانوورث. صاحب مزرعة فورتين، قرب ستيفنقيل، وهي تبعد حوالى خمسة أميال».

ـ سيلينا غايتس، في طريقي إلى ستيفنقيل.

ـ حسناً، يمكننا أن نضع عربتك في التصليح عندما نصل، وسنعرض الحصان على الطبيب البيطري.

شدّت سيلينا شعرها: «لكن، كيف سنصل إلى هناك؟ هل سنطير؟»

ـ أبداً. لقد أجريت اتصالاً هاتفياً، والمساعدة في طريقها إلينا. وبانتظار أن تُحلّ الأمور ستبقين معنا ليوم أو أكثر.

رمقت سيلينا ليو بنظرة مشككة وقالت: «لكنه يقول إن الذنب لم يكن ذنبك».

فاعترف بارتون من دون أن يجرؤ على مقابلة عيني ليو: «حسناً، لعل رد فعلي جاء متأخراً بعض الشيء. في الواقع، لو أنني أبطأت سرعتي قبل... على أيّ حال، لا تهتمي بما يقوله صديقي».

ثم مال نحوها وأضاف بلهجة لا تخلو من التواطؤ: «إنه غريب... ويتكلم بشكل مضحك».

كشّر ليو وقال: «شكراً يا بارتون».

كان اهتمامه لا يزال منصبّاً على أليوت، فراح يداعب أنف الجواد ويهمس له بكلمات جعلته يستعيد هدوءه. كانت سيلينا تراقبه من دون أن تنطق بأيّ كلمة، لكنها سجّلت في ذاكرتها كل ما يجري. ومهما كانت الأوامر التي أصدرها بارتون إلّا أنها بدت محددة، إذ أخذت الأحداث تتسارع بعد فترة وجيزة، فظهرت شاحنة تجرّ خلفها مقطورة

تحمل شعار مزرعة فورتين وتكفي لثلاثة جياد.

قادت سيلينا أليوت بلطف وجعلته يصعد فوق اللوح المعدّ للتحميل، وكان الجواد يعرج بشكل واضح.

وقال بارتون: «البيطري والطبيب في انتظارنا في المنزل. والآن اصعدي معنا في السيارة لنتطلق».

كانت تشعر بالغضب منه من دون أن تعرف السبب. وقد تأكدت من أنه لم يكن يقود السيارة؛ كما أن بارتون هانوورث، السائق، عرض عليها تعويضاً مناسباً. إلّا أن أعصابها لا زالت ثائرة، فهي لم تعرف هذا المقدار من الخوف من قبل. ويبدو أنّ سخطها كله ينصبّ على هذا الرجل الذي يجرؤ على إصدار الأوامر إليها، والذي يتحدّث إليها بصوت مهدّىء كالذي استخدمه لتهدئة أليوت، وهذه هي الطامة الكبرى!

ـ سنصل قريباً، وسوف تحصلين على الرعاية المناسبة.

فردّت وهي تصرف بأسنانها: «أنا لا أحتاج إلى الدلال».

ـ لكنك تحتاجين إلى العناية بعد تعرضك لحادث.

فقالت بنكد: «أظن أنّ البعض منا أقوى من البعض الآخر».

ولم يجبها ليو، فقد بدت مريضة واعترف بأنه يحق لها أن تظهر سوء طباعها.

للوهلة الأولى، لا تبدو هي نفسها جميلة، باستثناء عينيها الواسعتين الخضراوين. وقد عكست بشرتها المتورّدة الصحة والحياة في الهواء الطلق، ولاحظت عينا ليو، اللتان كانتا تراقبانها، حركتها باستمتاع، فهي نحيلة كلوح من الخشب، ولم تكن أنيقة لكنها قوية كما أنها تتحرك برشاقة راقصة. حاول أن يرى عينيها الرائعتين مجدداً من دون أن يفضح نفسه، فامرأة لها عينان كهاتين العينين لا تحتاج إلى أيّ شيء آخر يثبت جمالها. قال ليو وهو يمدّ يده: «اسمي ليو كالفاني».

صافحته فأحسّ على الفور بقوتها. شدّ أصابعه قليلاً، سعياً إلى معرفة المزيد عنها، لكنها سحبت يدها على الفور إذ لم تبقها في يده إلّا بقدر ما تقتضي اللياقة.

بدأت المقطورة تتحرك ببطء كما أمرّت سيلينا. وبعد دقائق، أدرك أنها تتأمّله بحشرية، لم تكن حشرية شهوانية كالتي اعتادها أو افتتاناً رومنسياً كما صادف غالباً... إنها حشرية وحسب، كما لو أنه خطر لها أنه قد لا يكون سيئاً كما اعتقدت في البدء، وهي مستعدة للتعويض عما بدر عنها. لكن ليس أكثر...

٢ ـ علاقة بين الحطام

كانت مزرعة «فورتين» عبارة عن أربعين ألف متر مربع من الأراضي الخصبة، حيث يرعى خمسة آلاف رأس ماشية ومئتا جواد، ويعيش خمسة موظفين وعائلة مؤلفة من ستة أفراد.

أدركت سيلينا أنها في حضرة ثروة طائلة عندما قفزت على عجل من المقطورة ورأت الإسطبلات حيث يضع بارتون جياده الممتازة.

كانت الأمور تسير بدقّة الساعة. فبينما كانت تقود أليوت، فتح رجل باب مربط واسع ومريح حيث ينتظر الطبيب البيطري. ورأت طبيباً آخر، أراد أن يجرّها جانباً ليفحّص جرحها لو لم يتدخل ليو كالقاني قائلاً بهدوء: «دعها تهتم بالجواد أولاً، فلن تهدأ حتى تطمئن إلى أنه بخير».

رمقته بنظرة امتنان لتفهّمه، وراحت تراقب البيطري وهو يحرر يدين خيرتين على جسد أليوت ليعطي بعدئذ التشخيص نفسه الذي أعطاه ليو، مع بعض التفاصيل الإضافية ليبرر كلفة المعاينة. وقد أعطى الجواد حقنة مضادة للالتهاب ووضع له بعض الضمادات.

سألته سيلينا بقلق: «هل سيتمكّن من المشاركة في الروديو في الأسبوع القادم؟».

ـ سنرى، فهو لم يعد شاباً.

عندئذ، سألها ليو: «ألم لا تدعين الطبيب يفحصك الآن؟».

أومأت وجلست فيما راح الطبيب يفحص رأسها. تحت ستار

هدوئها الظاهر كانت سيلينا في الواقع تغالب يأسها. فهي تشعر بالألم في رأسها، وفي قلبها وفي أنحاء جسمها كله.

سأل ليو بارتون: «كيف حال الجياد التي بعتك إياها منذ سنتين؟ هل تتحسّن؟».

ـ تعال لتراها بنفسك.

وسار الرجلان معاً يتفقدان المرابط. كانت الجياد الخمسة التي اشتراها بارتون من ليو في حالة جيدة. وهي حيوانات ضخمة ذات عراقيب قوية، تُمرّن بشكل قاسٍ لكنها تعامل معاملة ممتازة.

قال بارتون حين راحت تمرّغ أنفها في كفّ ليو: «أقسم أنها تتذكرك».

فابتسم ليو وردّ: «إنها لا تنسى من يحبها».

وفيما كانا يتأمّلان الجياد بإعجاب، استرق ليو النظر إلى سيلينا، فرأى الطبيب يضع لها ضمادة على جبينها وهو يقول: «استريحي ليوم أو اثنين. استريحي جيداً».

فأصرّت: «إنه مجرد ورم بسيط في الرأس».

قال بارتون: «سأحرص على أن ترتاح، فزوجتي تجهّز لها غرفة».

تبعتهما رغماً عنها إلى المنزل، وهو أشبه بقصر أبيض اللون جعلها تشعر بالغرابة. وتساءلت كيف سيتصرف ليو. ففي بنطلونه الجينز الرث وحذائه البالي بدا وكأنه في غير مكانه، كما شعرت هي بالضبط، لم يبدُ عليه أنّ الوضع يزعجه.

صرخات اللهفة جعلت ليو يرفع عينيه، وما لبث أفراد عائلة هانوورث أن أحاطوا به.

كانت داليا، زوجة بارتون، مليئة بالحيوية والحماسة والمرح، وقد بدت أصغر بعشر سنوات من عمرها الحقيقي، أما أولادهما فهم: فتاتان تحملان اسم كاري وبيلي، وهما نسخة شابة عن والدتهما،

وصبي يبدو كأنه يعيش في عالم الأحلام، بعيداً عن بقية الأسرة.

واكتملت الأسرة بحضور بول أو بولي كما تصرّ داليا على مناداته، وهو ابنها من زواج سابق ونور عينيها، فقد دلّله بشكل منافٍ للعقل.

استقبل بولي ليو كفرد من الأسرة، متبنّاً «بأوقات رائعة» سيقضيانها معاً، كان بولي في أواخر العشرينات، ذا وسامة سطحية، لكن ملامحه أظهرت أنه يطلق العنان لأهوائه ورغباته. فهو يعتبر نفسه رجل أعمال، لكن «عمله» هو عبارة عن شركة إنترنت، وهي الشركة الخامسة التي يؤسسها والتي بدا أنها تسير على طريق الفشل السريع، كما فشلت الشركات الأربع السابقة.

وقد كفله بارتون مراراً وتكراراً وأخرجه من ورطاته، مقسماً في كل مرّة أن تكون تلك هي المرة الأخيرة التي يساعده فيها، لكنه سرعان ما يعود ويرضخ لتوسّلات داليا.

ساد اللقاء جو أنيس، فبولي يحسن التصرّف ويبدو أنه عرف سيلينا: «رأيتك في الروديو في...».

وراح يتلو لائحة من الأسماء ثم أضاف: «ورأيتك تفوزين أيضاً».

استرخت سيلينا وتمكّنت من منحه ابتسامة، ثم اعترفت: «أنا لا أربح كثيراً، فقط بما يكفي لأستمر».

فقال بولي وهو يصافحها: «أنت نجمة، إنه لفخر أن يلتقيك المرء».

إذا ما ساور سيلينا الشعور نفسه فقد نجحت في إخفائه. فثمة شيء في بولي يضفي لمعاناً كريهاً حتى على محاولات الإطراء التي يقوم بها. شكرته وسحبت يدها كابحة رغبتها في حثّها على بنطلونها، فقد كانت يدا بولي باردتين ورطبتين.

قالت داليا بلطف: «غرفتك جاهزة وسترشدك إليها الفتاتان».

وتكفّلت كاري وبيلي بسيلينا على الفور، فجرّتاها على السلالم

الضخمة قبل أن يتسنّى لها أن تعترض. تبعهم بولي، الذي بدا من الصعب التخلّص منه، وعندما وصلن إلى أفضل غرفة للضيوف، احتال ليتقدّمهن ويدخل من الباب المفتوح ليقول بظرف: «الأفضل لأشهر ضيف عندنا».

وبما أن سيلينا ليست مشهورة، وهي تعلم ذلك، فقد نظرت إليه شزراً. كانت ترى فوق رأس بولي إشارة تقول: «احذر، مصدر للمشاكل!»، وسرّت عندما عمدت كاري إلى طرد أخيها من الغرفة.

كانت الغرفة مؤثثة بالأبيض والزهري والبنفسجي، وهي ألوان داليا المفضلة، وكان لون السجادة زهرياً ما جعل سيلينا تتحقق من أن جزمتها لا تحمل وحلاً في نعليها، أما الستائر فزهرية مطرزة باللون البنفسجي، فيما أحاطت بالسرير الضخم ستائر ناعمة بيضاء اللون. يمكن للسرير أن يسع اربعة أشخاص، هذا ما خطر لها وهي تتحقّق من الفراش بحذر. وبدا الفراش ناعماً وليّناً ما جعلها تتراجع خطوة إلى الخلف. كيف يمكن للمرء أن ينام فيه من دون تردّد؟

جالت في الغرفة وهي تتساءل عما إذا كانوا قد وضعوها في الغرفة الخاطئة. لقد تخرج ملكة إنكلترا من الخزانة لتقول إن الغرفة غرفتها.

الحمام بدوره بدا مثيراً للاضطراب، إذ بدا متكلّفاً، يعكس ذوقاً أنثوياً، بمغطسه الذي يشبه صدفة بحرية ضخمة. إذا كان ثمة شيء تعرفه سيلينا عن نفسها، فهو أنها ليست متكلّفة ورقيقة كغيرها من الإناث. كانت تفضّل الدوش، لكن قبعة الاستحمام لا تكفي لحماية الضمادة على جبينها لذا ملأت حوض الاستحمام.

وعندما امتلأ الحوض، نزلت فيه بحذر تتذوق راحة المياه الساخنة التي هدّأت كدماتها. استعرضت أنواع الصابون المختلفة حتى وجدت أخفها رائحة وبدأت تفرك بشرتها. وراحت متاعب النهار تزول تدريجياً.

ما إن وقفت في المغطس حتى رأت مجموعة من القوارير الزجاجية بألوان مختلفة على رف فوق الحوض. شعرت بالفضول، فاختارت إحداها وفتحتها لتشتم العبير الذي كان أقوى من رائحة الصابون. سارعت لاهثة إلى إقفالها، لكن أصابعها كانت زلقة فما استطاعت أن تمسك بها جيداً وانزلقت القارورة لتتحطم على حافة الحوض مصدرة صوتاً ينذر بالأسوأ. صرخت سيلينا مذعورة بسبب الاصطدام وبسبب تناثر قطع الزجاج في كل مكان حولها.

كان ليو في الغرفة المجاورة، يخلع ملابسه ليستحم. وكان بالكاد قد خلع قميصه حين سمع الصرخة فتوقف وخرج إلى الممر حيث وقف جامداً مصغياً. كان الصمت يلف المكان. ثم سمع صوتاً يائساً من خلف باب سيلينا.

ـ آه، لا! ماذا سأفعل؟

وتمكنت من التقاط منشفة كبيرة فلفت بها جسدها دون أن تحرك قدميها خوفاً من شظايا الزجاج.

دق بابها: «مرحباً؟ هل أنت بخير؟»

وصل إليه صوتها ضعيفاً: «في الواقع، لا».

فتح الباب لكنه لم يرَ أحداً في الغرفة: «مرحباً؟».

ـ أنا هنا.

بات متأكداً من أنها في الحمام، فاقترب من الباب المفتوح بحذر، محاولاً ألا يلهث بسبب الرائحة القوية التي فاحت وأحاطت برأسه كالغمامة. سألها: «هل أستطيع الدخول؟»

ـ سأعلق هنا إلى الأبد إن لم تدخل.

تحرّك بحذر ونظر من الباب إلى الصدفة الزهرية اللون الضخمة، فوجد سيلينا واقفة في وسطها وهي تحدّق إليه بعينين مسعورتين وقد غطت رغوة الصابون ركبتيها وساقيها. قالت بصوت يائس: «حطمت

إحدى زجاجات الكريستال».

نظر حوله وسألها: «هل تأذيت؟».

ـ ليس بعد، لكن قطع الزجاج تناثرت في كل مكان تحت الماء، وفي أرض الحمام. لذا لا أجرؤ على أن أتحرك.

ـ حسناً، لا تهلعي.

أحكمت شد المنشفة على جسمها وهو يتقدّم منها.

أخذ ليو نفساً عميقاً. كانت المنشفة تغطي جسمها حتى ركبتيها. تمسّكت بعنقه وشعرت بيديه على خصرها. كانت يداه كبيرتين، تكادان تطوقان جذعها. لكنه حاول ألا يركز على قربها الشديد منه.

حملها وهو يسير بحذر فوق شظايا الزجاج المتناثرة على أرض الحمام إلى أن وصلا إلى غرفتها.

وتجمّد دمه لسماع صوت منذر بالسوء. إذ تناهى إليه صوت قهقهة فتاة، لا بل فتاتين تقفان أمام الباب. وتعالى صوت كاري: «سيلينا، هل بإمكاننا أن ندخل؟»

ـ لا!

جاء صوت سيلينا حاداً وقفزت على الفور، فتمكّنت من أن تصل إلى الباب في الوقت المناسب ومدّت يدها لتقفله بالمفتاح، فيما اليد الأخرى تمسك المنشفة بإحكام على جسمها. لكنها لم تجد مفتاحاً، وهكذا لم تتمكّن من إقفال الباب.

صرخت وهي تسند ظهرها إلى الباب بقوة: «لا تدخلا، فلست محتشمة. سأنزل بعد دقيقة. اشكرا والدتكما بالنيابة عني».

ولحسن حظهما أن الصوتان قد ابتعدا.

قالك ليو نفسه وهو يتساءل كم سيحتمل أكثر. إذا لم يقض احتضانها على جهازه العصبي، فرؤيتها وهي تركض في الغرفة كالغزال المذعور قضت عليه تقريباً. لكنه كان واثقاً من أمر واحد وهو أنه أفلح

في إغلاقها، إذ لم يرَ نقطة دم واحدة تسيل منها.

هرعت سيلينا إلى الحمام واستبدلت المنشفة الطويلة بثوب محتشم أولها. ثم عادت إلى الغرفة لتقول: «شكراً، لقد أنقذتني من وضع مؤذٍ للغاية».

وكان قد قالك نفسه حين ردّ: «من أفضل أن أرحل قبل أن تُدمّر حمامنا!».

ـ ماذا سأقول للسيدة هانوورث؟

ـ دعي الأمر لي. أظن أنّ عليك ألا تنزلي إلى الأسفل. اخلدي إلى النوم، وهذا أمر.

نظر إلى الممر وشعر بالارتياح حين لاحظ أنه خالٍ. لكن، ما إن خرج من الغرفة حتى ظهرت كاري وبيلي، وكأنهما كانتا تختبئان في الزاوية.

ـ مرحباً ليو! هل كل شيء على ما يرام؟

أجاب مدركاً أنه عاري الصدر: «لا، فقد أوقعت سيلينا إحدى زجاجات الكريستال في حوض الاستحمام فتحطمت وهي فيه».

وتمنى لو أنّ الأرض تنشق لتبتلعه، فيما أضاف: «وعدتها أن أخبركما عن الزجاجة. وسأفعل ذلك... ما إن أرتدي قميصاً».

ودخل إلى غرفته مسرعاً، محاولاً ألا يسمع ضحكة المراهقتين المكبوتة والتي حملت ألف معنى من شأنها أن تجمد دم المرء في عروقه.

* * *

جاء ردّ فعل داليا كما توقّع ليو بالضبط، فأظهرت تعاطفاً ولطفاً إذ قالت: «ما قيمة الزجاجة؟ سأصعد لأتأكد من أنها بخير».

ثم عادت بعد دقائق ودخلت إلى المطبخ لتأمر بحمل الطعام إلى سيلينا في غرفتها. بدا أنها تحدّثت إلى ابنتيها في هذه الأثناء، إذ إنّ موقفهما من ليو حل بعد ذلك بعض الخبث.

ـ يبدو أنك لعبت دور الفارس. لكن، من يمكنه أن يلومك؟ فهي فتاة جميلة.

ـ داليا، أقسم أني لم أرها قبل اليوم.

وكانت غلطته فادحة، إذ ابتسمت داليا ابتسامة العارف بما يجري، وقالت: «أنتم الإيطاليون جريئون ورومنسيون، لا تفوّتون أي فرصة مع النساء».

فسألها بيأس: «ما هذه الروائح الزكية التي تتصاعد من المطبخ؟ إنني أتضوّر جوعاً».

الحديث عن الطعام قطع الطريق على الأحاديث الأخرى. الشخص الوحيد الذي أثار المسألة مجدداً كان بولي الذي أعاد تقريباً ما قالته أمه إلّا أن الكلمات من فمه بدت سوقية، كريهة ومزعجة. وعندما شرح ليو لبولي مبتسماً ما قد يفعله به إذا ما أتى على ذكر الموضوع مجدداً، انتهت المسألة عند هذا الحد.

وفيما كان يرتدي ثيابه ليشارك في حفل الشواء، حاول ليو أن يفهّم ردّات فعله الخاصة. فبالرغم من موقف سيلينا الدفاعي وسرعة غضبها، وهو أمر لا يمكن أن يلومها أحد عليه، إلّا أنها مغرية بشكل غريب. لم يلفته أيّ شيء فيها للوهلة الأولى، حتى إن احتضانها ما كان له أن يثيره، فهي تفتقر إلى امتلاء الجسم الذي يفضّله في النساء. لكن شيئاً ما فيها تمكّن منه بشكل غامض، لم يتمكّن بعد من تحديده. كما أن رؤية بولي يتشدّق بما يعتقد أنه جرى في غرفتها أثارت غضبه. وقد كبح ليو رغبته في ضربه، بعد أن ذكّر نفسه بأنه ابن مضيفته.

بدأ الضيوف بالتوافد وتوجّهوا إلى الحقل الكبير حيث تقام الحفلة، وهو الحقل نفسه الذي جرت فيه حفلة البارحة. راقب ليو ما يجري من ناقلته، عابساً متوقّعاً ما سيحدث الليلة.

صاح بارتون ما إن نزل ليو السلالم: «هل أنت مستعد لقضاء يوم

ممتع؟».

فردّ ليو بصدق: «أنا جاهز لذلك دوماً، لكن هل يمكننا أن نلقي نظرة على الاسطبلات أولاً؟».

ـ طبعاً، إذا أردت ذلك. لكن لا تقلق يا ليو، فستكون على ما يرام.

ـ ألبوت ذكر وليس أنثى.

ـ لم أكن أعني ألبوت.

قال بارتون ذلك، وقد بدا وكأنه لا يوجّه كلامه إلى شخص محدّد.

بدا أن الدواء المضاد للالتهاب أخذ مفعوله، كما بدا ألبوت راضياً. الطريق إلى الحقل يمرّ قرب مرآب بارتون، فرأى ليو عبر الباب المفتوح شاحنة سيلينا الصغيرة وبقايا مقطورة الجواد.

قال بارتون متأمّلاً: «لقد أكل الزمان على هذه الشاحنة وشرب. اسأل كيف صمدت كل هذه المدّة».

صعد ليو إلى المقطورة، وما رآه فيها أصابه بالصدمة.

لطالما اعتبر نفسه معتاداً على الحياة القاسية والخشنة، لكن رؤيته «لمرفأ» صديقته، إذ أن محتوياته اقتصرت على الحدّ الأدنى الضروري. رأى أريكة بالكاد تكفيها لتنام وموقداً صغيراً، ومكاناً صغيراً جداً للاغتسال. وأفضل ما يمكن أن يقال عن هذا المكان هو أنه يشعّ نظافة.

وأدرك أن تجارب الحياة القاسية التي عاشها، ما هي إلّا تجارب رجل غني، وجد لعبة يلهو بها. إذ مهما كانت الظروف القاسية، كان بإمكانه دوماً العودة إلى الحياة السهلة المريحة عندما يملّ من اللعب. أما هي، فليس لديها مهرب؛ هذا واقعها وهذه حياتها.

ما الذي دفعها لاختيار حياة التجوال، التي يبدو أنها لا تقدّم لها الكثير؟

واتضحت له الأمور بشكل مفاجىء ومفزع. لقد سلب منه الحادث كل ما تملك تقريباً. بعدئذ، لم تعد لديه فرصة ليفكر في أي أمر كئيب، إذ فتحت الضيافة في تكساس ذراعيها له، فارتمى بينهما مستمتعاً بكل لحظة، ومذكراً نفسه بأنه سيتمكن من التفكير لاحقاً. ومرّت ساعات عدة سعيدة.

وعندما كان يستريح ليلتقط أنفاسه، راح يتساءل عن حال سيلينا هل أكلت العشاء الذي أرسله داليا إليها، وهل هي جائعة من جديد.

ملأ صحناً باللحم المشوي والبطاطا ووضع زجاجة مرطبات تحت إبطه ثم توجّه نحو المنزل. لكن دافعاً ما جعله يغيّر وجهته نحو الإسطبلات. وكما توقع، وجد سيلينا هناك، تستند إلى مربط أليوت لتراقبه برضا.

سألها ليو: «كيف حاله؟».

أجفلت ثم ردّت: «إنه بحال أفضل، وقد هدأ كثيراً».

هي أيضاً كانت بحال أفضل كما لاحظ، فقد عاد اللون إلى خدّيها والبريق إلى عينيها. رفع الصحن لتراه فراحت تنظر إلى اللحم المشوي بلهفة تدل على شعورها بالجوع.

ـ أهذا لي؟

ـ حسناً، من الواضح أنه ليس لأليوت، هيا تعالي.

جلسا سوياً على كومة من القش وقدّم لها العصير، فأرجعت رأسها إلى الخلف وشربت جرعة كبيرة منها، ثم تنهّدت: «آه، هذا جيد».

أشار إلى الباب برأسه قائلاً: «لمَ لا تنضمّين إلى الحفلة؟»

ـ شكراً، لكني لن أفعل.

ـ ألم تزوري قط منزلاً كهذا من قبل؟

ـ بالطبع، وفي العديد من المرات. لكني لم أدخل من الباب

الرئيسي. لقد عملت في أماكن كهذه، ألمع الأرض، أنظّف المطبخ، لكني تقبّلت العمل في الاسطبل.

ـ متى كان ذلك؟ تتكلمين وكأنك كبيرة في السن، لكن لا يمكن أن يكون عمرك أكثر من أربعين سنة.

ـ أكثر من...؟

ورأت بريقاً شريراً في عينيه، فضحكت وقالت: «كنت لأطعنك وأتخلص منك لو لم تكن تحمل صحن اللحم المشوي».

قرّة وهو يناولها الصحن: «هذا ما أحبّ، امرأة تعرف أولوياتها. إذاً، إن لم يكن أربعين، فكم عمرك؟»

ـ أنا في السادسة والعشرين.

ـ ومتى حصلت هذه القصة القديمة كلها؟

ـ بدأت أرعى نفسي منذ كنت في الرابعة عشرة من عمري.

ـ في مثل هذه السن أليس من المفترض أن تكوني في المدرسة؟

هزّت كتفيها بلا مبالاة، وقالت: «أفترض ذلك».

ـ ماذا حصل لوالديك؟

وبعد صمت استمر للحظات، ردّت: «تربيت في مأوى، في أكثر من مأوى في الواقع».

ـ تعنين أنك يتيمة؟

ـ نعم، لقد عشت في بيوت للرعاية.

ـ بيوت؟ بالجمع؟

ـ الأول كان جيداً، ففيه اكتشفت الجياد. بعدئذ، علمت أن أي عمل أقوم به يجب أن يكون له علاقة بالجياد. لكن الرجل العجوز توفي وبيعت الجياد فيما أرسلت أنا إلى مكان آخر. هناك، كان الطعام بائساً، وكنت أنا يداً عاملة رخيصة. لم يرسلوني إلى المدرسة لأنهم كانوا بخلاء ولم يرغبوا في دفع أجرة عامل. تشاجرت معهم فطلبوا مني

توضيب أغراضي لأني عصبية ولا يمكن السيطرة عليّ. وهذا صحيح، فلم أكن لأدعهم يسيطرون عليّ.

سألها مبهوراً: «ماذا حصل بعدئذ؟».

ـ ملجأ جديد، لا يختلف عن سواه. هربت وقُبض عليّ ثم أعدت إلى المؤسسة. وبعدئذ، أخذوني إلى ملجأ جديد حيث بقيت ثلاثة أسابيع.

سألها عندما التزمت الصمت مجدداً: «ثم ماذا حصل؟».

ـ هذه المرة حرصت على ألّا يقبضوا عليّ. كنت في الرابعة عشرة وأبدو في السادسة عشرة. لا أظن أنهم بحثوا عني طويلاً. أتعلم، هذا اللحم المشوي لذيذ.

تقبّل تغييرها للموضوع من دون اعتراض، لِمَ قد ترغب في مناقشة حياتها إذا كانت على هذا الحال؟

٣ ـ عصر الفرسان

بعد أن خفّ خوفها على أليوت، استرخت سيلينا أكثر، وبدا وكأنها تتقبّل الحياة كما هي. فسألها: «هل أنت وأليوت معاً منذ فترة طويلة؟».

ـ منذ خمس سنوات، كنت أعمل بشكل غير منتظم في الرودبو، واشتريته بسعر زهيد من رجل يدين لي بالمال. كان يدرك أنّ حياة أليوت العملية انتهت، لكنني رأيت أنه ما زال بالإمكان الاستفادة منه إذا ما تمّت معاملته بشكل جيد. وأنا أعامله بشكل جيد.

ـ أظن أنه يقدّر ذلك.

قال ليو هذا فيما وقفت سيلينا وتوجّهت نحو أليوت لتداعب أنفه، فاقترب منها الجواد برضا وسرور.

وقف ليو بدوره وسار نحوها، مارّاً بالمرابط حيث راح يتأمل الحيوانات التي بادلته النظر بنظرات هادئة، جميلة، بدت وكأنها تشعّ في النور الخافت.

انضمّت سيلينا إليه وسألته: «أنت خبير في الجياد. أستطيع أن أرى ذلك».

ـ أربّي البعض منها في بلادي.

ـ أين؟

ـ إيطاليا.

ـ إذن، أنت غريب فعلاً.

ـ نعم. معظم الناس لديهم أفكار مسبقة عن الإيطاليين، فلسنا جميعاً ممن يتحرشون بالنساء.

ـ لا، أنتم فقط تغمزون النساء على الطريق السريع.

ـ من يفعل هذا؟

ـ أنت فعلت. عندما تجاوزتني سيارة السيد هاتوورث، رأيتك تنظر إليّ ومن ثم غمزتني.

ـ لم أفعل هذا إلّا لأنك غمزتني أولاً.

ـ إنها خدعة من الضوء، فأنا لا أغمز الرجال الأغراب.

ـ وأنا لا أغمز النساء الغريبات... إلّا إذا غمزنني أولاً.

وفجأة، راحت تضحك كما أرادها أن تفعل، فأشرقت الشمس من جديد. أمسك بيدها وقادها مجدّداً إلى كومة القش حيث كانا يجلسان. فقالت: «أخبرني عن موطنك، أين تعيش في إيطاليا؟».

ـ توسكانا، شمال البلاد قرب الساحل. أملك مزرعة حيث أربي بعض الجياد وأزرع الكرمة وأشارك في الرودير.

ـ رودير في إيطاليا؟ لا بدّ أنك تسخر مني.

ـ أبداً! ثمة مدينة صغيرة تُدعى غروسيتو، ويقام فيها سنوياً رودير ومهرجان واستعراض يجوب المدينة كلّها. وهناك مبنى مغطّى بصور «رعاة البقر» المخلّين. حتى سن السادسة، كنت أظن أنّ رعاة البقر إيطاليون، وعندما أخبرني قريبي ماركو أنهم أميركيّون نعته بالكاذب. يومها تشاجرنا فتدخل الأهل للتفريق بيننا.

وتوقف عن الكلام إذ راحت سيلينا تقهقه ضاحكة. بعدئذ، أضاف: «في النهاية، كان عليّ أن آتي إلى هنا لأرى بأمّ عيني».

ـ هل لديك أقارب غير قريبك ماركو؟

ـ نعم، لدي أقارب عديدون. لكني لست متزوجاً، فأنا أعيش وحدي إذا ما استثنينا جينا.

ـ هل هي صديقتك الحميمة؟

ـ لا، جينا تجاوزت الخمسين من العمر، وهي تطبخ وتنظف وتتنبأ لي بأنني لن أجد زوجة لأنّ الشابات لن يحتملن ذاك البناء الذي يعصف فيه الهواء.

ـ هل تيارات الهواء مزعجة وقوية فعلاً؟

ـ في الشتاء فقط! فهي تتغلغل في الجدران الحجرية الضخمة.

ـ يبدو المكان بدائياً.

ـ أظنه كذلك. فقد بُني منذ ثمانمائة عام، وما إن أُنهي إصلاح جزء منه حتى يظهر الخراب في مكان آخر. لكنه جميل في الصيف، إذ يبقى بارداً. وعندما تخرجين في الصباح الباكر وتنظرين إلى الوادي، ترين نوراً ناعماً لا ترينه في أيّ وقتٍ آخر. لكن عليك أن تتواجدي هنالك في الوقت المناسب لأنه لا يدوم سوى دقائق معدودة. بعدئذ، يتغيّر الضوء، فيصبح أقوى. وإذا أردت رؤية السحر مجدداً فعليك أن تعودي في صباح اليوم التالي.

توقّف عن الكلام، وقد فوجئ لاستخدامه هذا العدد من الكلمات، ولموجة الأحاسيس الشاعرية التي اجتاحتهما. وأدرك أنها تنظر إليه باهتمام لطيف.

ـ هل لديك أخوة وأخوات؟

ـ لديّ أخ أصغر مني...

وعبس ليو ثم أضاف: «علماً أن غويدو هو الأكبر بالنسبة للمجتمع. في الواقع، أكاد أكون غير موجود من الناحية القانونية، إذ تبيّن أن زواج والديّ لم يكن قانونياً. لكن ما من أحد كان يعلم ذلك حينها».

ـ وهل يهمك الأمر؟

ـ أبداً.

فقالت برضا: «وأنا أيضاً. فهذا الأمر يتركك حراً نوعاً ما. يمكنك أن تلعب حيث تشاء، وأن تفعل ما تشاء، وأن تكون من تشاء. هل هذا رأيك أيضاً؟».

وعندما لم تسمع منه أيّ رد، التفتت إليه سيلينا فوجدته مستلقياً إلى الخلف، وقد أغمض عينيه وبدا جسمه في حالة من الاسترخاء. يبدو أنه لم يستطع أن يقاوم سلطان النوم أكثر.

مدّت سيلينا يدها لتوقظه، لكنها توقفت على بعد إنش منه وراحت تتأمله. فأحداث هذا اليوم المربكة لم تترك لها فرصة لتتأمّله. إنه المنقذ الذي أجاد التعامل مع أليوت، والذي هدّأت بداه وصوته الحيوان الهائج. وإذا ما تقبّله محبوبها أليوت، فعليها أن تتقبّله هي أيضاً. لقد أنقذها في الحمام من جروح خطرة. حينذاك لم تسمح لنفسها بأن تفكر في الأمر أبعد من ذلك، لكن يمكنها أن تفكر فيه الآن.. في شعورها حين ضمها إلى صدره.. تذكرت كيف أمسك بها بيديه الكبيرتين، حاملاً إياها إلى برّ الأمان، وكيف أبعدها عنها ما إن أصبحت سالمة. لقد تصرف كسيد مهذّب، حتى في تلك اللحظات.

كل ما فيه يعجبها، بدءاً من جبينه العريض الذي تخفي نصفه الآن خصلة شعر شاردة، مروراً بحاجبيه الكثيفين وصولاً إلى عينيه البنيتين الداكنتين. أعجبها أنفه المستقيم وفمه. وتساءلت عن مدى جرأتها في التعامل معه. في الحقيقة يمكنها أن تخاطر، وتجرؤ على تحمّل أي سقطة، وامتطاء أيّ جواد لم تتألف معه. لكن الرجال مختلفون، وفهمهم أصعب من فهم الجياد. إنهم غريبو الأطوار وقد يسيئون الأذى أكثر مما تفعل أيّ سقطة.

ومع ذلك أرادت أن ترى ليو يبتسم مجدداً.. أرادت أن تتبع حدسها حتى النهاية.

صهل أليوت بغومة، لكن الصوت كان كافياً ليوقظ ليو. فتح

عينيه فيما وجهها لا يزال قريباً منه، وابتسم قائلاً: «لقد متّ ودخلت الجنّة، وأنت ملاكي».

ـ لا أظن أنهم سيرسلوني إلى الجنّة. إلّا إذا تم تغيير القواعد والقوانين.

ضحكا معاً، وتوجّهت سيلينا نحو أليوت الذي صهل مجدداً.

قال ليو: «إنه يشعر بالغيرة وحسب لأنك تعيرينني انتباهك».

ـ ما من داعٍ للغيرة وهو يعلم ذلك، فهو عائلتي.

ـ أين تعيشين؟

ـ إقامتي مسجّلة في مكان ما حيث أدفع الضرائب، لكني لا أقيم فيه. أنا أعيش مع أليوت، فهو بيتي وأهلي، وسيبقى كذلك إلى الأبد.

فأشار: «لا يمكن أن يبقى كذلك إلى الأبد». لا أعلم كم يبلغ من العمر، لكن...».

قالت سيلينا بسرعة: «إنه ليس عجوزاً. وهو يبدو أكبر من سنّه لأنه تعرّض للضرب، وهذا كل ما في الأمر».

فردّ ليو بلطف: «نعم، أنا واثق من ذلك. لكن، كم يبلغ من العمر؟».

تنهّدت: «لا أعرف بالتحديد، لكن عهده لم ينتهِ بعد».

وأشاحت بوجهها سريعاً لئلّا يرى الألم الذي غمرها. لكنه رآه وانفطر قلبه من أجلها، فهذا الحيوان الهزيل، كان كل ما لديها في العالم. وفجأة، بدا وكأنها فقدت قوّتها، فأمسك بها ليو بسرعة وقال: «هيا، ستخلدين إلى النوم. ولا تجادلي لأني لن أرضى بالرفض كجواب».

وأبقى ذراعه حول خصرها تحسباً لقيامها بخطوة مشاكسة، لكنها كانت أكثر إنهاكاً من أن تجادل، وتركته يقودها إلى المنزل ومن ثم إلى غرفتها. وعندما وصلا إلى الباب، قال: «عمت مساءً. أتمنى لك نوماً

هنيئاً».

كان الفجر على وشك أن يبزغ عندما غادر آخر المدعوين، ملوّحاً بيده وصارخاً: «أراكم لاحقاً». عندئذ، توجهت الأسرة إلى النوم بعيون غافية وقلوب سعيدة.

جلس ليو في سريره وقد تملّكه شعور غامض سار. هذه الليلة شهدت الكثير من المسرّات، وتخلّلها الكثير من المرح والضحك والرقص، لا سيما بعد أن أوصل سيلينا إلى غرفتها وودّعها ليعود إلى الحفل. شعر أنه الآن في سلام مع العالم. لكن وقع الخطى التي توقّفت أمام باب سيلينا لم يفته. وساد الصمت، ثم تعالى صرير الباب وهو يُفتح. وكان هذا كافياً ليجعل ليو يهبّ واقفاً، ويخرج إلى الممر في الوقت المناسب، ليمسك ببولي وهو يهمّ بالدخول إلى غرفة سيلينا. قال بصوت جعل بولي يجفل: «أليس هذا لطيفاً؟ كلانا منشغل البال على سيلينا بحيث لم نتمكّن من النوم قبل أن نطمئنّ عليها».

منحه بولي ابتسامة باردة وردّ: «لا يمكنني إهمال ضيف».

ـ بولي، أنت مثال يحتذى به.

ودخل ليو إلى الغرفة فيما هو يتكلم ثم أضاء النور. عندئذ، توقّف الرجلان وقد باغتتهما رؤية السرير فارغاً. وتمتم ليو: «تلك المرأة الحمقاء عادت إلى الإسطبلات».

ـ لا، لم أفعل.

تناهى إليه هذا الصوت من كومة على الأرض. فأضاء ليو المصباح الموضوع بجانب السرير، ورأى كومة تتضمن غطاءً ووسادة وامرأة حمقاء تشعث شعرها الأحمر بفعل الصدمة. سألت وهي تجلس: «ما الأمر؟ هل حصل شيء ما؟».

ـ لا، أنا وبولي قلقان عليك، لذا جئنا لنطمئنّ إلى حالك.

فقالت وقد أدركت الحقيقة على الفور: «هذا لطف بالغ منكما.

أنا بخير».

ـ إنها بخير يا بولي. يمكنك أن تخلد إلى النوم الآن وأن تنام هانئاً.

وجلس ليو على الأرض قرب سيلينا كرجل يعود إلى جذوره.

ـ آ... حسناً، أنا...

تكلّما بصوت واحد: «عمت مساء يا بولي».

اضطرّ بولي للاعتراف بالهزيمة، فتراجع نحو الباب ثم خرج. وآخر ما رأياه هو تقطيبته. قالت سيلينا: «أنت تعلم أنه كان بإمكاني أن أواجه الوضع».

ـ بعد ما مرّ بك اليوم، ألا يحق لك أن تكوني ضعيفة ولو قليلاً؟

ـ لا يحقّ لأحد أن يكون ضعيفاً.

ـ آسف!

فقالت بندم جليّ: «لا، أنا آسفة. لم أقصد أن أكون فظّة. أعلم أنك تحاول أن تكون لطيفاً معي، لكن عمليات الإنقاذ هذه بدأت تتحوّل إلى عادة سيّئة».

ـ أعدك بألّا أعيد الكرّة. في المرة القادمة، سأتركك لمصيرك، أقسم لك.

ثم قالت شاكية: «حاولت أن أنام على السرير قدر المستطاع، لكن هذا جنون. فكلما تقلّبت طرت في الهواء ستة أقدام. النوم هنا أفضل».

ـ من الأفضل أن أتركك قبل أن أغفو. اقفلي بابك بالمفتاح بعد خروجي. أعتقد أنّ ابن داليا لن يتوانى عن المحاولة ثانية.

لكنه تذكر أن الباب من دون مفتاح، ولم تستطع إقفاله حين حاولت القيام بذلك من قبل، فتنهّد. لم يعد أمامه سوى حلّ واحد.

- ماذا تفعل؟

طرحت عليه هذا السؤال حين عاد إلى السرير والتقط غطاء ووسادة. فقال وهو يرتمي أرضاً، ساداً الباب: «ماذا يبدو لك أني أفعل؟ إذا استطاع أن يفتح الباب الآن فهو رجل أقوى مما ظننت».

وتغلّب عليه النعاس، أما آخر فكرة خطرت له فهي أنه سيعاني الأمرّين في الصباح من جراء تصرّفه هذا. لكنها ستبقى آمنة على الأقل.

استيقظ وهو يشعر أنه بحال أفضل بعد سهرة البارحة الطويلة. شعر بالنشاط يدبّ في المنزل من حوله، ورأى أنه يستطيع أن يتركها بأمان. من الأفضل أن يرحل قبل أن تستيقظ، فهو لا يعرف ما يمكن أن يقوله لها. وراح يسخر في سرّه من تصرفاته التي شبهتها هازئة «بتصرفات عصر الفرسان».

دنا منها ببطء وهدوء متناسياً الفروسية، وراح يتأمّل وجهها. لقد استعاد وجهها بعض اللون منذ الليلة الماضية، واستطاع أن يرى أنها نامت، كما يفعل هو دوماً، من دون حراك، كحيوان راضٍ. وبما كانت قد نزعت الضمادة، فظهر الجرح والكدمة في جبينها. وبدا لونهما متناقضاً مع شحوبها. خطر له أن وجهها صغير وأنها تبدو الآن غير حصينة كطفل صغير، بعد أن تخلّت عن حذرها وحكمتها لتستسلم للنوم.

ساورته رغبة جامحة في أن ينحني ويعانقها، لكنه سُرّ لأنه لم يفعل، إذ ما لبث أن فتحت عينيها. بدت عيناها رائعتين، واسعتين وعميقتين عمق البحار، واختفى الطفل الذي كانته منذ قليل.

سألها: «كيف حالك اليوم؟».

- بألف خير. لم أمضِ في حياتي ليلة مريحة كهذه.

- على الأرض؟

- هذه السجادة سميكة، إنها ممتازة!

- تمنّ لي الحظ لئلا يراني أحد وأنا أخرج من هنا.

- سأتحقق من الممر.

ونظرت إلى الممرّ ثم أعطته إشارة الانطلاق. وما هي إلا لحظات حتى وصل إلى غرفته وإلى الأمان. صحيح أنه سمع الفتاتين تضحكان مجدداً، لكنه كثير الارتياب على الأرجح.

استحم وارتدى ملابسه وهو غارق في التفكير لأنه أدرك أن ضميره يؤنّبه بعض الشيء. فبالرغم من أنه لم يخبر سيلينا أيّ كذبة، إلا أنه ترك لديها انطباعاً بأنه فقير بقدرها تقريباً. لقد رأته في ثياب قديمة وسمعته يتحدّث عن العيش القاسي، واقتنعت بأنه ابن مهمَل. لكنه تغاضى عن إعلامها بأن عمّه هو الكونت كالفاني الذي يملك قصراً في البندقية، وأنّ عائلته ثرية جداً. وما أشار إليه على أنه مزرعته، هو في الواقع ملكية رجل ثري. وإذا ما شارك في العمل المضني فهذا نابع من رغبة لديه. لكنه لم يوضح لها هذه الأمور لأنه كان مقتنعاً في أعماقه بأنّ فكرتها عنه ستصبح سيّئة. فهو يذكر كلامها بعد وقوع الحادث. لقد قالت: «أنتم كلكم متشابهون. تسرعون في سياراتكم اللمّاعة، وكأنكم تملكون الطريق».

أمضى يومه مع بارتون، يجولان في ممتلكات هذا الأخير. فبارتون يربّي الماشية لجني المال، والخيول لأنه يحبّها. وكان يسعى إلى تحسين نسلها ويدرّبها من أجل الروديو. ولفت نظر ليو جواد كستنائي اللون، وهو فرس ربعي، قصير، قوي العضلات، تمّت تربيته للعدو السريع على مسافة ربع ميل، إنه حيوان مثالي للسباق.

- إنه جميل، أليس كذلك؟

قال بارتون هذا وهما يتأمّلانه ثم أضاف: «أصله من هنا، اشترته زوجة صديق لي، ثم عدت واشتريته منها بعد أن تخلّت عن الروديو

لتنجب أطفالاً».

سأله ليو مفكراً: «هل بإمكاننا أن نأخذه معنا ونضعه في الإسطبل؟».

أومأ بارتون إيجاباً. وفي طريق العودة إلى المنزل، علّق قائلاً: «يبدو أنك غرقت حتى أذنيك يا صديقي».

ـ هيا يا بارتون، أنت تعلم ما سيقوله خبراء التأمين. سيلقون نظرة على أليوت وأخرى على الشاحنة، وعندما يتوقفون عن الضحك، سيعرضون عليها عشرة ستات.

ـ وبِمَ يعنيك هذا؟ فما حصل لم يكن غلطتك أنت.

ـ سنخسر المسكينة كل شيء.

ـ حسناً، لكن ما دخلك أنت؟

صرف ليو بأسنانه: «هلّا عدنا إلى المنزل وحسب؟».

وابتسم بارتون ابتسامة عريضة.

وصلا إلى المنزل ليجدا الجوّ كئيباً. كانت سيلينا جالسة على حافة شاحتها تحدّق إلى الأرض، فيما تسعى الفتاتان إلى مواساتها وتعزيتها. وكان بولي يحوم حولها كما تحوم الدجاجة حول صغارها.

قالت كاري: «قال البيطري إن أليوت لن يكون بصحة جيدة للمشاركة في السباق الأسبوع المقبل. وإذا ما حاولت أن تمتطيه فقد يتعرّض للإصابة».

فقالت سيلينا على الفور: «بالطبع، لن أفعل. لكنني لن أحظى بأيّ فرصة لأكسب أيّ شيء، ولا بدّ أني أدين لك بالكثير...».

ـ لا، لكن يمكنك أن تسدي لي معروفاً.

وأشار بارتون إلى الجواد الربعي مضيفاً: «اسمه جيبرز. ثمة شخص يودّ شراءه، وإذا ما ربح سباقاً أو اثنين فيمكنني أن أرفع سعره. لذا، امتطيه واعرضيه وسيكون هذا أكثر من كافٍ لتفي دينك».

أخذت سيلينا نفساً عميقاً ومررت يدها بمسحة على الحيوان، قبل أن تقول: «إنه جميل».

ثم أضافت بسرعة: «لكنه ليس بجمال أليوت بالطبع».

وأطلعها بارتون على قصة المالك السابق، فشعرت سيلينا بالصدمة: «تخلّت عن المشاركة في الروديو لتبقى في مكانٍ واحد وتنجب أطفالاً؟».

فأشار ليو مكشّراً: «ثمة نساء غريبات».

وأظهرت النظرة التي رمقته بها سيلينا رأيها بهذه الفكرة. ثم قالت: «هل بإمكاني أن أضع سرجي عليه؟».

ـ فكرة جيدة.

خرجت الأسرة كلها لتراقب سيلينا وهي تختبر جيبرز في حلبة بارتون التجريبية. وُضعت البراميل الثلاثة على شكل مثلث. وانطلقت سيلينا وجيبرز بسرعة من خط الانطلاق وتوجها إلى المثلث ثم دارا بسرعة حول البرميل الأول ليعودا إلى المثلث، ومن ثم دارا مجدّداً حول البرميل الثاني واستدارا نحو اليسار متوجهين نحو البرميل الأخير. كل استدارة هي عبارة عن زاوية من خمس وأربعين درجة، تضع توازن الجواد ورشاقته فضلاً عن سرعته تحت الاختبار. كان جيبرز سريعاً، لكنه ثابت كالصخرة. أما سيلينا، فسيطرت عليه بيدين خفيفتين إنما قويّتين. حتى ليو، وهو ليس خبيراً في هذا النوع من السباق، رأى أنهما متناسبان ومتجانسان.

بعد الاستدارة الأخيرة، توجّها مجدداً إلى وسط المثلث ومن ثم إلى الخارج، فيما تعالى تصفيق العائلة وصراخها.

صرخ بارتون: «ثماني عشرة ثانية».

كانت عينا سيلينا تلمعان: «بدأنا على مهل. انتظر حتى نعتاد على بعضنا البعض. سنسجلّ أربع عشرة ثانية في غمضة عين».

وأطلقت صرخة ابتهاج وصلت إلى السماء، فانضمّ الكل إليها.
وخطر لليو، وهو يتأمل وجهها، أنه لم يرَ قط في حياته شخصاً بمثل هذه السعادة.

٤ ـ هل جننت؟

لقد قالت سيلينا إنّ ما من عذر لتكون امرأة ضعيفة لا حيلة لها، وعاشت في الأيام القليلة التالية بحسب قناعاتها. تجاهلت إصابتها، فقد عرفت في ما مضى أسوأ منها، وامتطت جيبرز حتى خفّضت المدة التي يسجّلها للسباق حتى أربع عشرة ثانية، كما تنبأت.

أصرّ بارتون على أن تبقى في المزرعة حتى انتهاء الروديو. وكان هذا منطقياً إذ أنّ أليوت يستعيد صحته ببطء، ولم يكن لديها أيّ مال لترحل، لكنه غمز ليو سراً، كأنه يقول له إنّ ثمة دافع خفي خلف عرضه يتجاوز اللطف.

تلمّر ليو حين أصبحا وحدهما: «أرى أن الأوهام قد ملأ رأسك. أنا معجب بالفتاة وأودّ أن أساعدها. تباً، فما من أحد ساعدها حتى الساعة! لكن هذا لا يعني...».

ـ بالطبع لا.

وتابع بارتون طريقه وهو يصفّر. أما ليو فتملّكه الشك في أنّ أحداث الليلة الأولى أصبحت بطريقة ما، مغروفة من كل أفراد العائلة، ما يعني أنّ قهقهات بيلي وكاري حملت معنى ما. وبدا واضحاً أنّ بولي يظن الأسوأ، لأنّ تصرفاته مع ليو أصبحت باردة.

كان ليو يمرّ بالإسطبلات كل مساء، عالماً أنه سيجد سيلينا وهي تودّع أليوت، فقد اعتادت أن تفعل ذلك مطوّلاً. وكان ليو مقتنعاً في سرّه أنها تحاول طمأنته بأنه لا يزال يحتلّ المرتبة الأولى في حياتها،

بالرغم من وجود جيبرز. فقد كانت أحياناً تمضي الليل في الإسطبلات. لكن ثمة شيء مختلف الليلة، فبدلاً من همس صوتها الناعم، تناهى إليه أصوات شجار حين فتح باب الإسطبل. ثمة شجار يدور في مكان ما في الظلام.

وبعد لحظة، رأى المتعاركين. إنها سيلينا تصدّ تحرشات بولي الذي لم يرضَ برفضها له.

ـ هيا، توقفي عن خداع نفسك. لقد رأيت النظرات التي ترمقينني بها. أنا أعرف المرأة التي ترغب في شيء ما.

واندفع بقوة نحوها. شتم ليو بصوت خافت واستعدّ لينقضّ على بولي، كفارس يهبّ لنجدة آنسة في خطر. لكن هذه الآنسة لم تكن بحاجة لأيّ مساعدة. فقد صدرت صرخة عن بولي الذي ارتدّ عنها مترنّحاً، وهو يمسك أنفه فيما راحت سيلينا تنفخ على مفاصل أصابعها.

قال ليو متأملاً: «جيل. سأتأكد من ألاّ تخطى حدودي معك. لم أكن أنوي ذلك على أيّ حال لكني تلقيت الآن إنذاراً».

فردّت سيلينا وهي لا تزال تنفخ على مفاصلها: «لقد جلبه لنفسه».

ـ ما من شكّ في ذلك.

وفجأة، تغيّرت لهجتها وتصرفاتها، وقالت: «لكن ما كان لي أن أفعل ذلك. يا إلهي! ليتني لم أفعل».

فسألها ليو: «ولماذا؟ لم تشعرين بالندم وأنت تستمتعين بذلك؟ أعتقد أنّ لكمه بعنف أمر ممتع ومسلٍ. أنا شخصياً أحسدك».

قالت بنبرة ملؤها الذعر: «لكنهم سيرمونني خارجاً. واليوت ليس جاهزاً للرحيل. هل تعتقد أنني إذا اعتذرت...؟».

حدّق إليها مدهوشاً، فالحديث عن الاعتذار هو آخر ما توقّعه منها.

ـ تعتذرين؟ أنت؟

ثم أردف وهو يمسك بها، مانعاً إياها من الحراك من مكانها: «لا، دعيني أتصرف».

ومشى إلى حيث وقف بولي مترنحاً، محدقاً إلى يده التي تمسك بأنفه. سأله ليو بدماثة: «كيف حالك يا بولي؟».

أنزل بولي يده بروية، فبدا أنفه أحمر وعيناه دامعتين. وزمجر: «هل رأيت ما فعلته؟».

ـ نعم، كما رأيت ما فعله أنت. ويمكنني أن أقول إنك نجوت بأقلّ ضرر ممكن.

ـ تلك الحقيرة...

فأشار ليو وهو يتأمل الأنف المتضرّر باهتمام: «حسناً، يمكنك على الأقل أن تنتقم. عد إلى أمك وأخبرها أنّ امرأة لكمتك وسأشهد معك. في الواقع، سأحرص على أن تعرف تكساس كلها القصة، وقد يصل الخبر إلى الصحف. التي ستطلب بالطبع صورة لك كما تبدو الآن».

وساد صمت مطبق فيما راح بولي يستوعب ما قاله ليو. وتحركت عيناه المستديرتان من أحدهما إلى الآخر، قبل أن يردّ بحدة: «ماذا تظنني؟».

عندئذ، قال ليو: «لو قلت لك رأيي فبك لأمضيتَ الليلة كلها هنا».

قرّر بولي التصرّف بحكمة والتغاضي عن هذه الملاحظة «إنها ضيفة هنا. ومن الطبيعي أن...».

وكان يتلعثم وهو يضيف: «ألا أقول شيئاً».

ـ كنت واثقاً من أنك سترى الأمور من هذا المنظور، ففي النهاية أنت سيد مهذّب. إذا ما سألك أحدهم عن سبب الكدمة فيمكنك أن

تقول له إنك تعثرت بمذراة، أو قل له إنني أنا السبب، فأنا لا أمانع.

واعترضت سيلينا: «لكني أمانع. فأنت ستحصل على شرف ضربه. إن لم أستطع أن أحصد ثمار أعمالي، فعليه أن يقول إن السبب هو المذراة».

ابتسم ليو ابتسامة عريضة وقد سرّه كلامها، ثم قال بنعومة: «يا لك من فتاة!»

فيما صرخ بولي: «كلاكما مجنون».

ثم ابتعد عنهما ليشق طريقه إلى خارج الاسطبل، وراح يعدو ما إن تحفّظ عتبة الباب.

قالت سيلينا بحرارة: «شكراً لك. كان هذا رائعاً».

ـ يسرّني أن أقدم لك يد العون. كان عليّ أن أطرحه أرضاً من أجلك لكن بدا لي أنك لا تحتاجين إلى مساعدتي، فأنت تفضّلين استخدام قبضتك، أليس كذلك؟

ـ لقد مرّنتها مراراً.

هزّت يدها وطوت أصابعها، فأخذها بين راحتيه وراح يدلّكها بأصابعه القوية الدافئة. وقفت جامدة، وهي تشعر بالطمأنينة والرضا يتدفقان في شرايينها، ربما لأول مرّة في حياتها، وكان هذا شعوراً رائعاً.

سألها: «هل أنت بخير؟».

فأكدت له: «كل شيء على ما يرام».

هزّت رأسها وقد هدأت ثم ابتسمت له، وحثّه دافع قوي لم يستطع مقاومته على ضمها بين ذراعيه، لكنه بدلاً من ذلك وضع إحدى ذراعيه على كتفيها وراح يهدهدها برفق، وقد تملّكته رغبة شديدة في أن يضمها بين ذراعيه إلى الأبد، لكنه أدرك أنّ عليه ألّا يفعل ذلك فيما هي لا تزال ضعيفة وسريعة العطب.

استطاعت سيلينا أن تسمع دقّات قلبه، وهذا الصوت جعلها تشعر بالأمان. من السهل أن تتكل على هذا الرجل الضخم الكريم، وأن تدعه يحمل عبء مشاكلها. لكنها ليست من ذلك النوع من النساء.

رفعت ناظريها إليه فرأت اضطراباً مفاجئاً يظهر على وجهه، فهمست: «ما الأمر؟».

انحنى ليو، فلامست جبهته جبهتها... وانتظرت... لكنه قال: «لا شيء، كنت أتمنى وحسب... لا، لا شيء مهم».

ـ ليو...

وحاولت الوصول إليه، لكنه رفع رأسه بسرعة وقال بعد أن تركها وتراجع بعيداً عنها: «عليك ألّا تنامي هنا، فمن السهل على بولي أن يصل إليك».

صمتت لحظة لتبتلع شعورها بالخيبة جرّاء رفضه لها، ثم قالت: «يمكنه أن يفعل ذلك في المنزل أيضاً، إلّا إذا نمت خلف الباب لتسدّه».

ردّ بيأس: «لا، هذه ليست فكرة حسنة».

لقد شاركها غرفتها مرّة من دون أن يحاول التقرّب منها، لكنه علم أنه لا يستطيع أن يثق بنفسه لتكرار التجربة مجدداً.

ـ هيا بنا.

وتقدّمها إلى الخارج، تاركاً بعض المسافة بينهما.

وفيما كانا يقطعان الحديقة، راحت تلقي على نفسها محاضرة عن إبقاء رأسها مرفوعاً، فهو بالتأكيد لا يشعر بالانجذاب نحوها. حسناً، لقد مرّت بهذه التجربة! كانت لتوفر الألم على قلبها لو لم تغرق في عالم من الأحلام السخيفة. تمكنت من الحفاظ على رباطة جأشها حتى وصلا إلى المنزل، حيث استطاعت أن تدّعي التعاطف مع داليا التي أخبرتهما أنّ بولي المسكين داس على مذراة فأصابت أنفه، ما سبب

ظهور كدمة عليه.

في صباح اليوم التالي، سعى ليو إلى الانفراد بسيلينا، فقال لها: «تعالي نخرج في نزهة، أودّ أن أجرّب أحد خيول بارتون».

كان لهذه الدعوة دافع خفي، إذ تواطأ مع بارتون على إبعادها عن المكان أثناء وجود خبراء شركة التأمين. كانت لديه فكرة عما قد يحدث، لكنه يحتاج إلى بعض الوقت لينظم أفكاره.

لقد رآها وهي تخوض سباق البراميل، فخلّفت لديه انطباعاً قوياً. والآن، يمكنه أن يراقبها بحرية وهي تمتطي الجواد من أجل المتعة فقط، وخطر له أنها تبدو طبيعية وأنيقة. حتى إنها تمتطي جواداً لم تعتد ركوبه ومع ذلك بدوا وكأنهما جسد واحد. وفكّر في فرس حمراء اللون يملكها في موطنه، وتمنى لو يستطيع أن يريها إياها.

وجدا جدولاً ظليلاً، فجلسا تحت الأشجار وبسطا الطعام الذي حملاه معهما. أخذت سيلينا نفساً عميقاً واستلقت إلى الخلف، وهي تفكر في جمال الشعور الذي يتملّكها لوجودها هنا، مع الشمس والمياه المتلألئة، وبعد أن امتطت جوادها لأميال. وما لبثت أن ذكّرت نفسها بأنّ عليها أن تعود إلى أرض الواقع، فما تعنيه فعلاً هو أنها تشعر بالسعادة لوجودها هنا معه. وراحت توبّخ نفسها وتتهمها بالخبل، فهو ليس لها. رددت في سرها: «كوني قوية. يمكنك أن تواجهي الوضع طالما أنه لا يتحدّث إليك بذاك الصوت الناعم الذي يطيح بعقلك».

لكنها ارتعشت رغماً عنها عندما سألها بهدوء: «هل أنت على ما يرام الآن؟».

ضحكت ضحكة صغيرة مرتبكة ثم أردفت: «... هذا التصرف لا يشبهني. أنا عادة أقلق كثيراً. قد لا ينفع ذلك، لكني أفعل ذلك رغماً عني».

فكّر قليلاً وقال: «القلق مضيعة للوقت».

ـ أنت لست من النوع الذي يقلق، أليس كذلك؟

عبس وهزّ رأسه بقوة: «إذا ما حصل الشيء، فقد حصل. وإذا لم يحصل، فلعل هذا أفضل».

ـ أنا أحسدك، فأنا أقلق وأهتم كثيراً. الأمر أشبه...

سألها ليو وهو يراقبها بابتسامة صغيرة: «أشبه بماذا؟».

ـ لا شيء.

وتراجعت سريعاً، إلّا أنه قطع الطريق عليها، فأخذ يدها بلطف في يده، كأنه يذكرها بصمت أنها آمنة معه. وقال: «أخبريني».

ـ لا، لقد... نسيت ما كنت سأقوله.

وضحكت بارتباك. لم يعلّق على كلامها لكنه رفع حاجبيه وكأنه ينعتها بالجبن. ثم ما لبث أن حثها قائلاً: «هيا خاطري، ثقي بي».

قالت من دون تفكير: «يبدو وكأني أمضيت حياتي وأنا أمشي على حبل بهلوان فوق هوّة سحيقة. أفكر دوماً في أنني سأصل إلى الطرف الآخر، لكن...».

وحركت يديها وكأنها تلاقي صعوبة في إيجاد كلماتها. سألها ليو وهو لا يزال يمسك يدها في يده: «وماذا ينتظرك في الطرف الآخر؟».

التقت عيناها بعينيه، فهزّت رأسها وردّت: «لست واثقة من وجود طرف آخر، و إذا كان موجوداً، فأخشى أنني لن أجده أبداً».

ـ أنت مخطئة يا سيلينا، ثمة طرف آخر دوماً، لكن عليك أن تعرفي ما الذي تريدين أن تجديه هناك. أنت لم تقرري بعد. وعندما تتخذين قرارك، سترين الطرق البعيد، وستصلين إليه.

ـ إلّا إذا وقعت. أشعر دوماً بأني أرتعش ما يجعلني أتردّد.

ـ لا أتخيّلك مترددة ترتعشين.

ـ لأني أصرخ كثيراً لأخفي خوفي. أحياناً، كلما علا صوتي كلما شعرت بتزايد الضعف والخوف في داخلي.

ـ لا أصدق ذلك، فأنت شجاعة للغاية.
ـ شكراً، لكنك لا تعرفني حق المعرفة.
وسألها فجأة: «ماذا تريدين أن تفعلي في حياتك يا سيلينا؟».
ـ ما أفعله الآن.
ـ أعني أنه لا يمكنك أن تستمري على هذا الحال إلى الأبد. مستعين يوماً وستضطرين للاستقرار.
ـ أتعني الحياة العائلية؟ المنزل والقلب؟ لا، شكراً! فهذا ليس لي! الجدران الأربعة تجعلني أجنّ. والبقاء في مكان واحد يزيد جنوني أكثر.
فاقترح ليو بحذر: «لكنك قد تغرمين بشخص ما، ربما بقدر ما تحبين البوت».
ـ لا، فالناس خادعون. عليك أن تحترس منهم طوال الوقت. البوت أفضل منهم، فالأمور معه بسيطة وسهلة.
فقال ليو: «لكنك لم تجيبي بعد عن سؤالي. ماذا ستفعلين حين تضطرين للتخلّي عن المشاركة في الروديو؟».
ـ سأشتري مزرعة وأرتي الخيول.
ـ ألا يعني هذا الاستقرار في مكان واحد؟
ـ يمكنني أن أخيّم في الخارج أحياناً.
ـ تعرفين ما أعنيه، فتوقفي عن اللفّ والدوران.
ـ أتعني هل سأربط نفسي بزوج؟ مستحيل. ولماذا؟ لأعيش مع رجل ما يقودني إلى الجنون، وأنا أعلم أني جعلته يُجنّ أيضاً؟
ـ ألا تؤمنين بأن شخصين يمكن أن يحبا بعضهما البعض مدى الحياة؟
وأضاء المرح وجهها: «ليو، أنت إنسان عاطفي، وتؤمن بهذا الهراء».

فردّ مراوغاً: «أنا إيطالي. ويُفترض بنا أن نؤمن بهذا «الهراء» كما تسميه».
ـ توقف عن المزاح! أراهن على أنك تعتقد أن كلمة قمر تتناغم مع كلمة سمر، وأن الحب يدوم إلى الأبد. يا إلهي! أنت مضحك جداً. حسناً، إنها صنارة أفضل من تلك التي استخدمها بولي.
لم يجب ليو. وبعد لحظة، تنبّهت إلى أنّ صمته اختلف، فرفعت نظرها إليه لتجد أنّ عينيه عاصفتان بالغضب. قابل نظرتها الحائرة بنظرة نارية.
فسألته: «ماذا قلت؟».
ـ إن كنت لا تعرفين الرد على سؤالك، فلا يمكنني أن أخبرك. لكني سأحاول. أنت تعتبرين أني لست أفضل من بولي، وأني أمدّ الصنارة الآن لأصطادك لاحقاً في الاسطبل. فشكراً لك!
ـ لم أكن أعني...
ـ بل أعتقد أنك عنيت ذلك. فكل الرجال متشابهون بنظرك لأنك لا تكبدين عناء النظر جيداً.
هبّ واقفاً، وابتعد عن الجدول إلى حيث ترتفع الأرض بشكل حاد، وتعلو المنحدر الشاهق صخرة، فتسلّق حتى جلس أعلاها، وراح يحدّق إلى الفضاء بغضب.
حلقت سيلينا فيه برعب، وهي تشعر بالغضب منه ومن نفسها ومن العالم أجمع. لم يخطر لها أنها قد تجرحه، فحياتها القاسية والفوضوية علّمتها الاستقامة والصراحة إنما لم تعلّمها الرقّة وصقل الكلام. إذا أردت شيئاً فعليك أن تسعى للحصول عليه، لأن أحداً لن يمنحك إياه. كانت تتمتّع بالقدرة على البقاء لكنها تفتقر إلى الحيل، وخطر لها لأول مرّة أن ثمة نقص ما في أسلحتها.
تسلّقت المنحدر حتى أصبحت تحته مباشرة، وارتاحت حين رأت

أنّ الغضب اختفى من وجهه. لم تكن تخشى غضبه، لكن لطفه بدأ ينسج سحره حول قلبها. مدّ يده ليرفعها إليه، فتمكّن من الجلوس قربه.

ـ أنت لست غاضباً مني، أليس كذلك؟

أطلق صوتاً أشبه بصوت الدبّ فضحكت ضحكة سرور ولفّت ذراعيها الاثنين حول ذراعه وأسندت رأسها إلى كتفه.

ـ أنا آسفة ليو. أنا دوماً على هذا الحال، أفتح فمي الكبير أولاً ومن ثم أفكر.

أدار رأسه ليرى وجهها قدر المستطاع، ثم وضع إحدى يديه الكبيرتين فوق يدها الصغيرة. وإذا بها تقول: «لم أقصد أن أشبّهك ببولي. كان عليّ أن أدرك أنك لست مثله، تحوم وتحوم لتحاول أن تسرق عناقاً».

تكلّم ليو بهدوء: «لم أقل إني لا أريد أن أعانقك».

فسألت على الفور: «ما معنى هذا؟»

ـ لا شيء.

أصبح هذا الحوار خطراً، فهو يكاد يعترف بما يريده حقاً، ويمزّق شبكة الثقة الرقيقة التي تنمو بينهما.

عادا إلى البيت متمهلين فيما كانت الشمس تميل نحو الغروب. وعندما ولجا إلى الحديقة، تبادل ليو نظرة صامتة مع بارتون، وأدرك أنّ أسوأ مخاوفهما قد تحقّقت.

أخبره بارتون عندما أصبحت سيلينا بعيدة في الاسطبل بحيث لا تستطيع سماعهما: «كما قالت سيلينا بنفسها، ألقوا نظرة على شاحتها وأغرقوا في الضحك. سيدفعون تعويضاً لكنه مجرد تعويض رمزي، ولن يسمح لها بشراء شاحنة بديلة».

فقال ليو: «حسناً، علينا أن ننتقل إلى الخطة ب».

ظهرت الدهشة على وجه بارتون: «لم أكن أعلم أنّ لدينا خطة أ».

ـ الخطة أ هي التي فشلت لتوها. والآن، إليك الخطة ب...

وأمسك بذراع بارتون وجرّه بعيداً، بحيث لم تسمع سيلينا التي كانت في الاسطبل سوى صيحة بارتون الذي قال: «هل جننت؟»

٥ ـ معجزة لم مليونير؟

لم يكن ليو ينوي حضور الرودبو في ستيفنفيل وحسب، بل المشاركة فيه أيضاً. ومع ما أسماه بارتون «جرأة دون إدراك»، كان مصمماً على ركوب ثور.

راح يجادل بارتون: «ثور واحد وحسب، ماذا يمكن أن يحصل؟»

ـ قد تدقّ عنقك، ألا يكفي هذا؟

كانا يتناولان الفطور مع العائلة، وبما أنهما جلسا على طرفي المائدة، راح الآخرون ينقلون نظرهم من أحدهما إلى الآخر كمن يشاهد مباراة في التنس. حتى إن جاك، الذي اعتاد أن يدرس حتى وهم يتناولون الطعام، رفع رأسه عن كتابه ليتأملهما ويتابع جدالهما.

أصرّ ليو قائلاً: «أنا أدرك ما أفعله يا بارتون».

ردّ بارتون: «أشك في أنك تدرك ما تفعله».

ـ أحتاج لبعض التمرين فقط.

ـ وهل هذا ما كنت تفعله في إيطاليا؟ أولاً، لديهم ثيران تطرح راكبيها أرضاً.

ـ أحتاج لبعض التمرين على الآلة التي تملكها فقط.

ـ ليصبح الذنب ذنبي؟ مستحيل!

تنهّد ليو: «حسناً. عليّ إذن أن أشارك من دون أي تمرين. وعندما أدقّ عنقي، يصبح الذنب ذنبك فعلاً».

فصاح بارتون: «هذه ضربة تحت الحزام».

وإذا بكاري تتدخل متوسلة: «دعه يحاول يا أبي».

ـ أتريدينه أن يتأذى؟ ظننت أنك مولعة به.

فهمست الفتاة وقد تملّكها الإحراج: «أبي!».

كانت سيلينا مستمتعة بما يجري حتى تلك اللحظة. لكنها أشفقت على الفتاة التي أعلن حب مراهقتها على الملأ، وتضاعف بؤسها بازدياد احمرار وجهها. كانت واثقة من أنّ ليو سيدّعي أن شيئاً لم يحصل.

لكنه فاجأها حين فعل العكس، إذ أعلن مشيراً إلى كاري: «أترى، لديّ شخص يساندني. أتعتقدين أني أستطيع القيام بذلك يا كاري؟».

فقالت بتحدٍّ: «نعم».

ـ ولا تعتقدين أني سأدقّ عنقي، أليس كذلك؟

ـ أظن أنك ستبرع.

ـ أسمعت يا بارتون؟ استمع إلى صديقتي هناك، فهي تعرف ما تقوله.

اضطرت سيلينا للاعتراف بأنه أجاد التصرّف، إذ اختفى احمرار كاري وعادت البسمة للظهور على وجهها. في غضون ثوانٍ قليلة، حوّل ليو ولعها به إلى صداقة قدّرها علناً. كان تصرفاً ذكياً ولطيفاً منه. غمرها الدفء والسعادة. ولم تفهم لما أثار لطف ليو حيال شخص آخر هذا الشعور لديها. لكن الأمر كان أشبه بتلقي هدية شخصية. وكلما كان اللطف من أيّ رجل آخر، كلما شعرت بسعادة أكبر.

تذمّر بارتون إلا أنّه استسلم أخيراً. وبعد الفطور، توجهوا إلى حيث الثور الآلي، وهي آلة كهربائية، صُمّمت ليتم امتطاؤها، تهتاج وتتمايل ليتمرّن راكبها على التمسّك بمطيته. كانت الآلة ذات سرعات متعدّدة، تبدأ بسرعة خفيفة للمبتدئين، وأصرّ بارتون على وضعها على السرعة الأخف رغماً عن ليو.

وقفت سيلينا مع بقية أفراد الأسرة تتفرج بشغف على ليو الذي

تمكّن من اجتياز الاختبار الأول. وبعد أن تلقى التشجيع، قرّر زيادة السرعة وتمكّن من البقاء على ظهر الآلة.

الصرخة التي صدرت عن بيلي جعلتهم يديرون رؤوسهم في الوقت المناسب ليروا ليو وهو يطير في الجو، ليحط على الأرض حيث بقي ممدداً من دون حراك. دفنت كاري وجهها بين يديها: «لا أستطيع أن أنظر. هل هو بخير؟»

أما سيلينا فقد ساورها شعور بأن الزمن توقّف فيما كانت تركض إلى حيث وقع ليو. وعندما وصلت إليه، صدرت عنه شهقة قوية. أصدر هذا الصوت المفزع مرة بعد أخرى، وشعرت بأن عقارب الساعة عادت تدور مجدداً حين لاحظت تقطّع أنفاسه.

عندما مرّت الأزمة، بدا منهكاً فاستند إليها وهو يتنهد. ثم رفع نظره نحو الآخرين الذين التفّوا حوله وابتسم لهم ابتسامته المريضة التي لا تقاوم. وقال: «قلت لكم إني قادر على ذلك».

اعتباراً من تلك اللحظة بدأ العدّ العكسي للروديو. وراحت المدينة تمتلىء بالزائرين فيما تردّد إلى مزرعة بارتون عدد كبير من المشترين الذين كانوا يتفحصون جياده الممتازة ثم يفتحون محافظهم. وبدت داليا في محيطها الطبيعي، فكانت تقيم الحفلات وتشرف على مخزون ملابس رعاة البقر وعلى سجل الأشياء التي تحتاجها للكشك الذي ستقيمه.

كان ليو وسيلينا يتمرنان معاً في بعض الأحيان، وهو مصمّم على امتطاء ذاك الثور حتى لو كان هذا آخر شيء قد يفعله في حياته.

تمرّنت سيلينا بقوة، وخاضت سباقات حول البراميل على صهوة جيرز بغية الحفاظ على الوقت الذي سجّله وهو أربع عشرة ثانية أو حتى خفضه. وفي إحدى المرات حاولت أن تلتف من زاوية ضيّقة جداً، فانتهى بها الأمر مرمية على الأرض.

ركض ليو نحوها وكان يشاهدها من خلف السياج، لكنها نهضت

على الفور وقفزت على السرج مجدداً، لتعاود المحاولة بحذر أكبر هذه المرة، فتراجع ليو وانسحب.

قال لها عندما ترجّلت: «ظننت أنك تأذّيت».

فسألت جذلة: «أنا؟ بسبب هذه السقطة الصغيرة؟ مررت بما هو أسوأ، ولعل ما ينتظرني في المستقبل أسوأ. المسألة ليست هامة».

تنهّد: «ألا يمكنك أن تكوني ضعيفة وحساسة أحياناً، كباقي النساء؟»

صاحت ضاحكة: «ليو، على أيّ كوكب تعيش؟ فالنساء لم يعدن ضعيفات وحساسات في هذه الأيام».

وضربته على كتفه فرنّت كل عظمة في جسمه المرضوض. وتساءل عما يمكن أن يفعله مع امرأة كهذه، فهو لا يستطيع أن يواسيها بالكلام، لأنها ستظنّه مجنوناً وقد تدوس على قدمه لتعيده إلى صوابه. كل ما يمكنه القيام به هو الانتظار والتمسّك بالأمل، وهو على ثقة بأنّ الجوهر العذب واللطيف سيظهر يوماً ما تحت جلدها الشائك، وبأن ما هو مقدّر سيحصل في الوقت المناسب عندما تصبح مستعدة، أو.. ربما لن يحصل أبداً.

ذاك المساء، كان بارتون في مكتبه ينتظر عودتهما. وعند إشارته، استوقف ليو سيلينا قائلاً: «عودي معي إلى الخارج. أريد أن أريك شيئاً».

ورأت في الباحة منزلاً صغيراً متنقلاً، ومع أنه لم يكن فخماً، لكنه بدا كالقصر مقارنة مع ما كانت سيلينا تقوده في الأصل. كما رأت خلفه مقطورة عادية إنما مصمّمة بشكل جيد.

قال بارتون: «إنهما لك، بدلاً مما فقدته».

أخذت نفساً عميقاً: «هل أنت مسؤولو شركة التأمين؟»

ردّ بارتون بشيء من الارتباك: «في الواقع، لا أريد اللجوء إلى

شركة التأمين من أجل هذا الأمر. لم أتقدم بأيّ مطالبة منذ سنوات... في الواقع، من الأوفر أن أستبدل ما حطّمت».

قالت سيلينا: «لكنني... لا أفهم، فالضرر الذين لحق بسيارتك... لا يمكن أن يكون أرخص من...».

قاطعها بارتون: «اتركي هذا الأمر لي، إنه أرخص الآن... هكذا نحلّ المسألة».

ـ لكن يا بارتون...

فقال بارتون يائساً: «النساء لا يفهمن هذه الأمور».

ـ أنا أفهم.

ـ لا، أنت لا تفهمين شيئاً. لقد فكّرت في الأمر ملياً و... لا أريد أيّ جدال. ستأخذين جيبرز والعربتين فنصبح متعادلين.

سألته سيلينا وقد شعرت بدوار: «أتعطيني كل هذا؟ لكنني لا أستطيع أن أقبل. فشاحنتي ومقطورتي بالكاد كانتا جيدتين...».

فقال بارتون: «لكنهما كانتا تثقلانك من مكان إلى آخر. حسناً، هذه الشاحنة ستثقلك من مكان إلى آخر أيضاً».

ختم بارتون كلامه بهذه الجملة وقد بدت في عينيه نظرة ضياع، إذ بدأ يفقد الإلهام ويفتقر إلى حجج مقنعة.

ـ لكن جيبرز...

ـ إنه يحبك ويتجاوب جيداً معك. والمقطورة تتسع لحصانين، لذا عندما يتعاق أليوت، يمكنك أن تأخذي الإثنين.

فقالت سيلينا بحزم: «لن يطول الأمر الآن».

ـ طبعاً، لن يطول. لكن جيبرز سيساعدك حتى ذاك الحين.

راقبهما ليو بصمت. ثمة أمر يعرفه الجميع، إلّا أنها غير مستعدة للاعتراف به، وهو أن أيام أليوت في الرودييو ولّت. ترك سيلينا تتأمل منزلها الجديد، ولحق بارتون الذي كان في منتصف الطريق إلى البيت.

دمدم قائلاً: «ظننت أنك ستفسد المسألة كلها».

ـ لم يكن الذنب ذنبي. من الطبيعي أن تشكّ بالأمر. لذا، اضطررت لأن أرحّل.

فقال ليو ساخراً: «النساء لا يفهمن هذه الأمور. ما من رجل يجرؤ على قول مثل هذا الكلام في هذه الأيام، لا سيما إذا أراد أن يبقى حياً».

التفت بارتون إليه: «حسناً، أظن أنّ أداءك سيكون أفضل. حاول أن تخبرها الحقيقة. أخبرها أنك من يدفع كافة التكاليف لترى ردّ فعلها».

فقال ليو باهتياج شديد: «اصمت! يجب ألّا تعرف، وإلّا ستسلخني حياً».

ـ عظيم! إذن، فأنت تدرك حقيقة الوضع. والآن، هل ستبقى هنا طوال الليل أم ستنضم إليّ في المنزل؟

ـ سأرافقك إلى المنزل.

استيقظ الجميع باكراً في أول أيام الرودييو. وحملت داليا وابنتاها كومات من البضائع الجديدة في الشاحنة، فيما راح بارتون يراجع لائحة أعدّها بأسماء الأشخاص الذين ينوي عقد صفقات معهم في جوّ مرح. وتم تنظيف جيبرز والاعتناء به حتى بدا وبره لامعاً، ثم اقتيد إلى مقطورة الخيل. ودفعت الغريزة بليو إلى الاسطبلات بحثاً عن سيلينا، فوجدها كما توقّع تماماً، في مربط أليوت، تداعب أنف الجواد وتهمس له بحنان: «الأمر ليس نهائياً. عليك أن تفهم ذلك. جيبرز جواد جيد، لكنه ليس أنت. لن تكون علاقتي به كما كانت العلاقة بيننا، سنصبح سوياً من جديد. هذا وعد».

أراحت خدّها على أنفه، وقالت: «أحبك أيها الحيوان العجوز أكثر من أيّ شخص آخر في العالم، أسمعت؟»

حاول ليو أن ينسحب بهدوء، لكنه لم يفلح في ذلك. ورفعت سيلينا نظرها إليه. فقال بلطف: «أعتقد أنه يعرف كل ما تفكرين فيه».

استدارت نحوه وفي عينيها نظرة حادة ثم سألته: «ليو، أتظن أني سأربح؟»

ـ حسناً، إن لم تكسبي فيمكنني..

وتوقف عن الكلام بعد أن وضعت إصبعها على فمه.

ـ لا تكمل. فأنا لا أقبل الصدقة، ولن آخذ أيّ مال منك.

بقي صامتاً، فالوقت غير مناسب ليعلمها كم أعطاها حتى الساعة. وتابعت تقول: «على أيّ حال، لمَ تخاطر بمالك من أجلي؟ لو أني عجزت عن تسديد المبلغ، فماذا ستفعل؟».

ـ سيلينا، أنا لست في حالة مادية سيئة بقدرك. وما العيب في أن يساعدك صديق؟ ما من قانون ينصّ على أن تبقي مستقلّة دوماً.

ـ بل، إنه قانوني. وأنا أعيش بمقتضاه ولا يمكن أن أتغيّر. سأنجز أموري بنفسي وأكسب مالي بنفسي.

ـ سيلينا، قبول المساعدة ليس ضعفاً.

ـ لا، لكن الاعتماد على المساعدة ضعف. تصبح ضعيفاً عندما تعتقد أن شخصاً ما سيبقى دوماً إلى جانبك، ليساندك. إذ عاجلاً أم آجلاً سيرحل ويتركك.

عبس وقال: «إن كنت تؤمنين حقاً بما تقولينه، فليساعدك الرب».

ـ لمَ نتجادل وتتشاجر يا ليو؟ إنه يوم رائع. سنمضي وقتاً رائعاً وسوف أفوز. لا يمكنني أن أخسر.

نظر إليها وقد أمال رأسه جانباً: «لمَ لا يمكنك أن تخسري؟»

ـ لأني حصلت على معجزتي. أتذكر حين التقينا على الطريق السريع؟

ـ ما كنت لأختار كلمة «التقينا»، إنما تابعي حديثك.

ـ قبل ذلك، كنت مع بن وهو صديق قديم يصلح لي شاحنتي. قال لي إني أحتاج معجزة أو مليونيراً، لكني قلت له أن ينسى أصحاب الملايين، فما من جدوى منهم.

فسألها ليو الذي شعر بابتسامة تشرق في داخله: «إذن، اخترت المعجزة؟».

ـ هذا صحيح. قلت له إني أشعر بأن معجزتي في طريقها إليّ.

وابتسم أكثر: «وهل كانت فعلاً في طريقها إليك؟».

ـ أنت تعلم الرد. كان بارتون على الطريق السريع وقد قُدّر لنا أن نلتقي.

وذوت الابتسامة: «بارتون؟»

ـ حسناً، أليست معجزة؟ إنه رجل صالح، صاحب ضمير، لم يتملّص من واجباته والتزاماته، كما كان ليفعل الكثيرون.

فقال ليو بصوت أجوف: «هذا صحيح».

ـ إذن، فقد حصلت المعجزة. والآن سوف أربح.

ـ وأنا أيضاً. اسمعي، كفّي عن الضحك.

لكن سيلينا استمرت في الضحك، فأضاف: «أنت بذلك تجرحين مشاعري. لقد ظننت أننا أصدقاء».

وعلى الفور، تمالكت نفسها ووضعت يديها حول وجهه، والندم بادٍ عليها.

ـ ليو، أنا آسفة. لم أقصد أن أجرحك بعد أن كنت طيّباً معي. كنت أمازحك وحسب...

ـ أعلم ذلك.

ـ هل أنت واثق؟ فأنا مؤذية أحياناً. لا أتعمّد القيام بذلك، لكن هذا لا يمنعني من الأذى.

أومأ ليو برأسه متفهماً، فهو يدرك تماماً ما معنى أن يقوم المرء بأمر لم يكن ينوي قبل عشر ثوان القيام به. وناشدته سيلينا قائلة: «قل إني لم أجرحك فعلاً، فأنت أفضل صديق لي. وإن غضبت مني فلن أكون سعيدة ومرتاحة».

ترك ليو يديه تلتفّان حول خصرها. لم تكن مشاعره مجروحة، لكنه تمكّن من النظر إليها بتعاسة، بعد أن أسكت ضميره. لا يمكن لومه لأنه يحاول أن يستفيد من الموقف إلى أقصى حدّ، أليس كذلك؟

قال بشجاعة: «أنا لست غاضباً».

فسألته وقد تمكنت من قراءة أفكاره بسهولة: «ولست مجروحاً أيضاً، أليس كذلك؟».

لكنها لم تُبعد يديها بل أنزلتهما لتضعهما خلف عنقه، كما لم تقاوم حين شدّها لتدنو منه أكثر. ثم قال: «جرحتني في الصميم».

لم تجب بل وقفت جامدة تتأمّل وجهه، فيما الإثارة تتراقص على وجهها وشفتيها المبتسمتين وفي عينيها.

قال بصوت غير ثابت: «سيلينا، قربك مني يجعلني أشعر بالتوتر».

ـ أتظن أن عليّ أن أفعل شيئاً بهذا الخصوص؟

ـ نعم. هذا ما أظنه.

أمالت رأسها بطريقة جعلت قلبه يتخبط بين ضلوعه. ثم قالت وهي تدنو منه: «حسناً، تعبت وأنا أنتظر منك القيام بالخطوة الأولى».

كان عناقها كما تخيّله بالضبط، لذيذاً ومغوياً إنما يخفي خلفه الكثير من التحدّي والإثارة. لم تكن فتاة ساذجة، بل امرأة صاحبة تصميم.

راح رأس سيلينا يدور، لم تقصد القيام بذلك، لكنها كانت تحتاج لمعرفة شيء ما؛ فاقت لهفتها قدرتها على التحمّل، فمانعته

اكتشاف وتحدٍّ في الوقت عينه. وأدركت على الفور أنه كان عليها أن تنتظر، فما من امرأة ينتظرها يوم حافل، يمكن أن تتحمّل هذا النوع من الإلهاء. وما عليها أن تلوم سوى نفسها لأنها لطالما علمت أنّ هذا الرجل يستحوذ على انتباه المرأة كله. ما كان عليها أن تستعجل الأمور.

بدا أنّ شعوره يماثل شعورها، إذ لفّ يديه حولها بلطف لم يخفِ قوتهما. أرادت أن تكتشف هذه القوة، فوجدتها في عناقه، هذا العناق الذي سعى من خلاله إلى اكتشاف جوهرها الحقيقي.

خطر لها وهي مشوّشة الذهن بأن عليها أن تتوقف، فالتوقيت غير مناسب أبداً.

ـ ليو...

ـ نعم...

وتعالى صوت بارتون من الخارج: «هل من أحد هنا؟ نحن جاهزون للانطلاق».

أطلقها ليو متذمراً: «مع أنني أحب بارتون، لكن...».

عادت سيلينا إلى أرض الواقع، وأدركت أنها تخلّت تقريباً عن كل شيء من أجل هذا الرجل. استجمعت شتات نفسها بعد جهد جهيد، وقالت على عجل: «لا، إنه محق. علينا أن نتوقف».

ـ هل علينا ذلك؟

ـ سيتاح لنا الوقت لاحقاً. أما حالياً، فعلينا أن نحضّر أنفسنا لهذا اليوم. أرجع كتفيك إلى الخلف وارفع رأسك. ثق بنفسك وبقدرتك.

ـ أجد أنّ من الأسهل أن أؤمن بك، فسوف تفوزين. لقد سجّلت أربع عشرة ثانية على صهوة جيرز، وما كنت أظنك قادرة على ذلك.

رقصت لفرط إثارتها: «كنت أعلم أنّ بإمكانه القيام بذلك، فهو

جواد رائع، سريع وقوي للغاية...».

ـ حذارِ! فأنت تتكلمين أمام اليوت! وقد يُصاب بعقدة نفسية.

ـ آه.. منك!

وضربته، فأحاط كتفيها بذراعه وخرجا معاً وهما يضحكان.

٦ ـ وداع أم لقاء...

الوصول إلى موقع الروديو أشبه بالدخول إلى قرية. ينقسم الموقع إلى حلبة حيث تجرى المباريات، ومكان مخصص لتسليم الجياد وتجهيزها، ومركز للتسوّق حيث تعرض داليا والعشرات غيرها مختلف أنواع البضائع.

سعى ليو إلى امتطاء الثور في اليوم الأول، «لتنتهي الكارثة سريعاً»، بحسب تعليق سيلينا. وكما توقّع، وجد فرقاً شاسعاً بين الثور الذي تمرن على امتطائه والثور الضخم الهائج الذي قابله الآن. ما من شيء في الأيام القليلة الماضية، بما في ذلك تمارينه على الآلة، حضّره لما يواجه. بدا وكأن الثور قرّر شخصياً أن يسحق عظامه كعقاب له على محاولته الغبية هذه.

عليه أن يحاول تحمّل هذا مدة ثماني ثوانٍ، كما خطر له فيما كان دماغه يرتطم يميناً ويساراً بجمجمته.

لكنه ثور ضخم. وتمكّن من رميه خلال ثلاث ثوانٍ. حطّ ليو على الأرض بقوة لكنه نجا. فقد أصبح يجيد الوقوع أرضاً، بعد كل التمارين التي مرّ بها.

وفيما كان يخرج من الحلبة، سمع تصفيق الحشود، تعبيراً عن تقديرهم وإعجابهم بجسارته لأنه حاول الصمود على ظهر ذاك الثور. ورأى آل هانوورث يصفقون له بحرارة الأصدقاء، باستثناء بولي الذي بدت السخرية على وجهه بشكل فاضح.

أما سيلينا فلم تكن تسخر منه. كانت عيناها تلمعان من المتعة لأنه نجح في محاولته، وحملت ابتسامتها وعداً وتذكيراً. ابتسم لها ليو ابتسامة عريضة، ابتسامة سعادة ورضا. وليذهب بولي إلى الجحيم!

خلف ابتسامتها، كانت سيلينا تتلوّى. فعندما طار ليو من فوق رأس الثور غرزت أظافرها في راحة يدها ترقباً حتى استقام مجدداً. لم يدقّ عنقه... إنه حي... يمكن للأرض أن تدور من جديد. وبخت نفسها لأنها بالغت في ردّ فعلها وقلقت حيث لا ينبغي ذلك، فكم من رجل رأته يُرمى عن ظهر الثور؟ لكن أياً منهم لم يكن ليو.

انسحبت لتحضر بدورها، كان جيبرز ينتظرها بهدوء. لقد سجّلا معاً نتائج طيبة في حلبة التمرين، لكن الأمر مختلف الآن، إنها ليلة الافتتاح. أحكمت وضع قبعتها الطويلة على رأسها، ففقدانها قد يجعلها تخسر نقاطاً قيّمة.

سبقها إلى الحلبة خمسة متبارين، وسجّلوا كلهم نتائج طيّبة. قالت لجيبرز: «حسناً، المهم ألاّ تدعهم يخيفونك. أنت لا بل نحن جيدان بقدرهم. هيا يا فتى! لنثبت لهم ذلك».

وما إن قُرع الجرس حتى طارت فوق خط البداية متوجهة نحو أول برميل داخل المثلث ثم انعطفت بشكل حاد لكنها تركت لجيبرز مكاناً كافياً ليتحرك. دار حول البرميل ثم حول البرميل الثاني وتوجّها نحو الأخير ومنه إلى خط النهاية وشعرت بالبهجة حين أظهرت الساعة أنها في الطليعة.

كان ليو بانتظارها خارج الحلبة فوقفا معاً يشاهدان المتسابق التالي. قال لها بصدق: «لا مجال لمقارنتها بك. لا أحد من المتبارين يضاهيك».

المتباريتان التاليتان كانتا بطيئتين. وبقيت سيلينا في الطليعة. وأخيراً تعالى الهتاف مع دخول المتبارية الأخيرة إلى الحلبة.

ـ لا أستطيع أن أنظر.

قالت سيلينا هذا وهي تدفن وجهها في صدر ليو، فما كان منه إلاّ أن طوّقها بذراعيه، فيما سألته: «ماذا يحصل؟».

ـ البرميل الأول، إنها سريعة لكنك لا تزالين متقدمة، البرميل الثاني... والآن الثالث...

أصبح هتاف الجمهور الآن يصمّ الآذان. وتنهّد ليو وهو يشدّ ذراعيه حولها، ويريح رأسه على رأسها.

صرخت: «آه، لا! لا، لا، لا!».

قال ليو: «بِعُشر الثانية، أنا آسف حبيبتي».

قال الكلمة الأخيرة بالإيطالية، فرفعت رأسها وسألته: «ماذا دعوتني؟»

ـ كانت كلمة إيطالية.

ـ أعلم، لكن ماذا تعني؟

ـ حسناً...

لكن، وفيما راح يتساءل عمّا إذا كان عليه أن يخاطر ويخبرها بمعنى الكلمة، سمعا صوت باريتون العالي والعميق يهنئها ويواسيها في الوقت عينه. ومرّت تلك اللحظة، وبقي ليو يفكّر في أن تردّده أضاع عليه الفرصة، وإن لم تضع فقد تأجّلت إلى وقت لاحق.

عاد الجميع مسرورين إلى البيت تلك الليلة، فقد حققت داليا أرباحاً جيدة، وفازت سيلينا ببعض الجوائز النقدية لحلولها في المرتبة الثانية، كما بقي ليو على ظهر الثور مدة ثلاث ثوانٍ، كل هذه الأسباب دفعتهم للاحتفال حتى وقت متأخر من الليل.

وبالرغم من هزيمتها، شعرت سيلينا بالسعادة، فالمبلغ المخصص للمرتبة الثانية أفضل مما تجنيه عادة. وجدها ليو جالسة على الشرفة تتأمل المال بسعادة لامتناهية.

ـ أنا غنية، غنية!

سألها ساخراً: «تعتبرين نفسك غنيّة لأنك كسبت مئة دولار».

ـ إنها فدية ملك. حسناً، ربما ملك صغير جداً. ومن يرغب في دفع فدية ملك، على أيّ حال؟ فليذهب الملوك إلى الجحيم!

كان النجاح قد أثملها، فراحت تضحك وهي تتكلم، مهاجمة مجتمع النخبة بجسارة ومرح. وعلّق ليو: «هذا كثير على الأسر المالكة. يبدو أنك لا تؤمنين بهم».

وسألته: «أليكم منهم في إيطاليا، أليس كذلك؟»

ـ ماذا؟

ـ الأرستقراطيون.

فاجأته كلمة أرستقراطيين، فقال بحذر: «إيطاليا جمهورية... إنما لا يزال لدينا بعضاً منهم».

ـ هل التقيتهم يوماً، أعني هل تحدّثت إليهم وجهاً لوجه؟

ـ ليسوا نوعاً من أنواع الزواحف يا سيلينا.

ـ هذا ما هم عليه. يجب أن يوضعوا في قفص في حديقة الحيوانات.

ـ لكنك لا تعرفين شيئاً عنهم.

ـ حسناً، وهل تعرف أنت؟

ـ أعرف أنهم ليسوا جميعاً سيئين.

ـ لمَ تدافع عنهم؟ ينبغي أن تكون إلى جانبي... فليسقط الأرستقراطيون، وليحيا العمّال.

ـ أتودّين إرسالهم جميعاً إلى المقصلة؟

هزّت رأسها: «لا، سأجعلهم يوسّخون أيديهم في الحقول، مع العمّال، مثلنا».

فقال: «أنت لا تعرفين أي عامل! من يعلم ماذا أفعل عندما أعود

إلى إيطاليا؟».

تركت ما كانت تفعله وأخذت إحدى يديه بين راحتيها. بدت يده كبيرة وخشنة. فقالت: «طبعاً أنا أعرف، فهذه يد عامل. لقد تعرّضت للأذى مرات عدة، فيك تحمل ندوباً».

وكان هذا صحيحاً، لكن الحقول كانت حقوله وهي تدرّ عليه ثروة أكبر من ثروة بارتون. خدعته الصغيرة باتت تثقل كاهله، وفجأة لم يعد قادراً على التحمّل.

ـ سيلينا...

بدا وكأنها لم تسمعه. كانت تقلّب يده، حاملة إياها بنعومة ولطف. ثم رفعت عينيها إليه فصدمته نظرتها البريئة. كان في عينيها بريق خطف أنفاسه وبهره فأشاح بنظره عنه. سألته بهدوء بعد أن تركت يده: «ما الأمر؟».

ـ لا شيء، أنا...

وابتسم لها ابتسامة عريضة، مصطنعة ثم أضاف على عجل: «جسدي كله يؤلمني. سأزور مجبّر العظام غداً. والآن، حان وقت دخولنا نحن الاثنين إلى المنزل، كان يومك شاقاً وطويلاً».

فهمست بكآبة: «نعم، كان يومي شاقاً للغاية».

في الليلة الأخيرة للرودييو، تقرّر أن يقيم بارتون إحدى حفلات الشواء التي اعتاد إقامتها. فما من ضيافة تضاهي تلك التي تتميز بها مزرعة فورتين. تبعتهم مجموعة كبيرة من السيارات والشاحنات وهم في طريقهم إلى المنزل.

ساور ليو شعور بعدم الرضا، إذ تذكر أنه سيغادر في اليوم التالي، لكنه لم يكن مستعداً لذلك. شيء ما بدأ هنا لكنه لم ينتهِ. ولم يكن باستطاعته تسريع الأحداث لأنه لا يعرف طبيعة مشاعره بما يكفي. لقد انطبعت سيلينا في قلبه كما لم تفعل أيّ امرأة من قبل، إنما ثمة

هوّة سحيقة بينهما، تباين في أسلوب الحياة والبلاد واللغة. كما أنهما لا يؤمنان بالمستقبل نفسه. وحده حب كبير يمكنه أن يتغلّب على مثل هذه المشاكل ويتجاوزها. وكيف له أن يأمل أن امرأة لا تؤمن بالحب سوف تحبه حباً كهذا؟

فكرة الوداع آلمته للغاية، وأمِل أن تكره ذلك بقدره، لكن كان من المستحيل معرفة ذلك. ولعل هذا هو الجواب الذي يحتاجه. لم يريا بعضهما كثيراً منذ ليلة الروديو، وكان شوقه إليها يعذّبه كما يغمره شعور بأنه يسير على حبل رفيع.

في اليوم التالي، ارتدى ثيابه على عجل واستعدّ للأمسية. وتعالت من الطابق السفلي أصوات الموسيقى والضحكات، فوقف يتأمل المشهد السار. تصاعدت رائحة لذيذة من الشواء، فيما راحت الأضواء تلمع بين الأشجار، وبدا وكأن الموسيقى تستدعيه بإغراء. لقد سبقته سيليا إلى الحفل. استطاع أن يراها وسط مجموعة صغيرة من الناس. لا بدّ أن أداءها الحيوي لفت الأنظار. سيصبح مستقبلها أفضل الآن، وستأتي المساعدة التي قدّمها بثمار جيدة، حتى وإن لم تعلم هي بذلك؛ حتى لو نسيته كلياً ولم يخطر في بالها مجدداً لبقيّة حياتها. وعند هذه الفكرة الكئيبة، نزل إلى الأسفل لينضم إلى الحفل.

كان الحفل يعجّ بما يمكن أن يلهيه: نساء باسمات، طعام لذيذ، أحاديث مضحكة ومشوّقة. لكنه فقد شهيته فجأة، وراح يراقبها والغيرة تتآكله. رقص عندما اضطر للذلك لكنه سعى دوماً لئلا تغيب عن ناظريه.

عندما تفرّقت الجموع لتبدأ رقصة جديدة، شقّ طريقه نحوها ورأى أن عينيها تلمعان. قالت بسعادة: «أشعر أني بأحسن حال. آه، ليو، لو أنك تدرك شعوري هذا!»

فقال بحنان: «هذا رائع. أريدك أن تكوني هكذا على الدوام».

ـ لقد أجرت معي الصحيفة المحلية مقابلة للتوّ، وسألتني عن نجاحي...

بعد أن هُزمت بفارق ضئيل في السباق الأول، كسبت في اليوم الثاني وحققت انتصاراً آخر في اليوم الذي تلاه. وفي اليوم الأخير، تم تنظيم حدث كبير لأفضل عشرة متسابقين من المباريات السابقة، وقد حصدت النصر.

سأله بتعجّب: «هل تعلم كم كسبت من مال؟»

ـ نعم، لقد أخبرتني.

ـ لقد جنيت أكثر مما حصلت عليه يوماً.

ـ وماذا ستفعلين بهذا المال؟

ـ سأشارك في مسابقات أخرى. سيكفيني هذا المال للأشهر الستة القادمة.

ـ وبعدئذ؟

ـ حتى ذاك الحين، أكون قد كسبت ما يكفي للستة القادمة. أنا على الطريق الصحيح.

لم يبد من كلامها أنها ستشتاق إليه شوقاً شديداً. تأمّلها قليلاً ثم ابتعد ليجر كاري إلى حلقة الرقص. رقصا حتى انقطعت أنفاسهما، ثم سارا معاً إلى المقصف وهما يضحكان.

سأله كاري: «هل سوّيت الأمر؟»

ـ الأمر؟

ـ مع سيليا. هل هي مولعة بك بقدر ما أنت مفتون بها؟

منذ أن استجد بها ليو في النقاش حول ركوب الثور، اتخذت كاري لنفسها دور الشقيقة المتفهّمة.

ـ من الواضح أنها ليست مولعة بي.

ـ لكنك مولع بها.

ـ كاري، أرجوك!

ـ حسناً. أعتقد أني رأيتها تبحث عنك، وكنت أخطط للانسحاب، لكن إذا...

ـ أنت فتاة رائعة.

والتفت ليرى سيلينا تتأمله وقد علت شفتيها ابتسامة صغيرة غريبة. اقتربت منه وقالت: «لم ترقص معي بعد».

وانسحبت كاري كما وعدت، لكن ليس قبل أن تلقي نظرة لترى ليو وسيلينا في أحضان بعضهما البعض كتمثالين يتكاملان.

رقصا صامتين لفترة، وكل منهما يفكر في أنهما سيفترقان وسيرحل كل منهما في طريقه في الغد. شعرت سيلينا بإرباك شديد، فقد ودّعت الكثيرين من قبل، لكن الأمر مختلف هذه المرّة. حاولت أن تكون عملية. كل ما عليها أن تفعله هو أن تتماسك حتى يرحل ثم تنساه. لا بدّ أنه من السهل نسيان رجل يعيش في النصف الآخر من العالم. لكن قلبها ينبئها بأنه لن يكون بعيداً عنها مجدداً، لأنها ستحمله معها في كل لحظة ولبقية حياتها.

وفجأة تغيّرت الموسيقى، وتعالى عزف كمان منفرد راح يعزف لحناً كئيباً، لحن توق ووداع. لن تراه مرة أخرى، فدنت منه أكثر فيما اعتصر الألم قلبها.

أغمضت عينيها، فلم ترَ إلى أين كان يقودها. كل ما عرفته هو أنهما يرقصان، يدوران ويدوران، فيما الأصوات تخفت من حولهما. تابعت الرقص كأنها في حلم حيث لم يكن هناك سواهما، يدوران ويدوران.

ـ سيلينا...

صوته وهو يهمس اسمها جعلها تفتح عينيها لتجد وجهه قريباً من وجهها.

ـ سيلينا...

وداعبت أنفاسه وجهها، فهمست بسرعة: «نعم».

وعانقها بعنف نابع من يأسه، شعر أنها تنساب من بين أصابعه، وبدا الإمساك بها أشبه بمحاولة الإمساك بالزئبق. بادلته العناق بالشغف نفسه. شيء ما ينمو بينهما منذ التقيا، لكن فهمه استغرق وقتاً طويلاً، ولن تدعه يفلت منها الآن. ستستفيد من قربه منها إلى أقصى حدّ مهما كلّف الأمر، وستعيش بعدئذ على مجد هذه اللحظات.

لم تعلّمها حياتها الكثير عن الحب والحنان، وما تعرفه اكتشفته بنفسها. لكن ما يحصل في داخلها الآن تجربة جديدة لم تعشها من قبل. لم تكن تعلم أن عناق رجل قد يجعلها تتألم من فرط السعادة والتعاسة في آنٍ معاً، بحيث لم تعد تعرف أيهما أقوى. لكن هذا لا يهم. كانت تعي مشاعرها وأحاسيسها وتدرك أنها لن تندم عليها أبداً مهما كلّفتها من ألم. وسوف تتألم، هذا ما علّمتها إياه حياتها.

إنّ حياة هذا الرجل مليئة بالنساء من دون شكّ، لكن لمسه تبدو بريئة وكأنه يختبر شيئاً ما لأول مرة في حياته. ورغم اللهفة التي تسيّره ما زالت تشعر بحنانه، وكأن الحرص عليها يهمّه أكثر من أيّ شيء آخر.

إلا أنه يريدها إلى حدّ يقوده إلى الجنون. كانت تشعر بارتجاف جسده الضخم والقوي وبحركة تنفّسه المتسارعة. وأثارتها فكرة أنها تؤثر فيه إلى هذا الحدّ. أرادته أن يؤخذ بها بقدر ما هي مأخوذة به.

كان هو من وضع حداً للعناق، فأمسك بها من كتفيها وأبعدها عنه قليلاً كي يتمكّن من النظر إلى وجهها. بدا وجهه عاصفاً. وقال لاهثاً: «اخترنا وقتاً غير مناسب، ربما علينا...»

ـ ربما علينا ماذا؟ أن نكون أكثر عقلانية؟ من يريد أن يكون كذلك؟

ـ حسناً، أنا بالطبع لا أريد، لكن أنت... سيلينا، غداً...

وتوقّف عن الكلام، وسبحت الكلمات المتعقّلة الحكيمة في الهواء وماتت قبل أن ينطق بها.

همست: «نعم، نعم...».

واقتربت منهما أصوات تتعالى من مكان ما. مزاح، ضحك، غناء، ضيوف يصيحون ويهتفون فرحاً قبل أن تنتهي الحفلة. نظر ليو يائساً إلى الضوء والضجيج اللذين تدفّقا نحوه ليغمراه ثم سمعا أصواتاً.

ـ انظروا من يختبىء بين الأشجار!

ـ من هذه، ليو؟

ضحك بصوت عالٍ، محاولاً التخلّص من السؤال. وقدّم له أحدهم كأس عصير فأخذه. وعندما التفت بحثاً عن سيلينا، لم يجدها.

* * *

بدا وكأن دهراً مرّ قبل أن يرحل الضيوف. وأخيراً عاد المكان هادئاً واستطاع ليو أن يتنفّس الصعداء، فقد يتمكنان من الاختلاء بعضهما البعض للحظات، ليحلّا المسائل التي أثاراها بين الأشجار. لكنه لم يجد أثراً لسيلينا، لقد حمل عناقها الكثير من الوعود، وها هي تتركه الآن.

صعد إلى غرفته مقطب الجبين، وهو يحاول أن يفهم ما يجري. يمكن للنار أن تتجمّد قبل أن يفكّر في قرع بابها، فعليها أن تقوم هي بالخطوة التالية. هذا ما قاله لنفسه، وعلى الرغم من ذلك، توجه إلى بابها وقرعه بنعومة. إما أن يفعل هذا وإما أن يمضي حياته وهو يتساءل عما إذا كان قد قام بالخيار الصحيح. وعندما لم يسمع أيّ رد، طرق الباب بقوة أكبر ثم انتظر. لكن ما من ردّ.

توجّه إلى غرفته، وقف قرب النافذة يتأمل الأراضي المظلمة، وقد أدرك أنّ من الغباء الاستغراق في الأحلام في حين أنه سيرحل غداً. لقد

فات الأوان الآن. وقف هناك محاولاً أن يقنع نفسه بأن من الأفضل أن يتحلّ بالوعي.

لم يعلم ما الذي جعله يعي أنه ليس وحيداً في الغرفة. لم يسمع صوت تنفّس واضحاً، لكن شيئاً ما تغيّر في الجو. وعندما مدّ يده إلى المصباح، همس صوت في العتمة: «لا تضيء النور».

قال: «أين أنت؟»

لم تجب، لكنه ما لبث أن أحسّ بذراعين ناعمتين تلتفان حول عنقه.

سألها: «كنت هنا طوال الوقت؟ لقد عدت للتوّ من...»

ـ أعلم، فقد سمعتك.

وسرّته ضحكتها. راحت أصابعها تداعب شعره، لتنزلق إلى عنقه وخدّه، فيما راحت دقّات قلبه تتسارع وقد أثارت فيه لمستها مشاعر عارمة.

سألته: «هل تتذكر لقاءنا الأول؟»

ـ أتعنين حين أنقذتك من الزجاج المتحطم في أول يوم لك هنا؟ كيف لي أن أنسى؟

ـ كان بإمكانك أن تستغل الوضع حينذاك وتعانقني.

ـ خفت من ردّ فعلك، فبالكاد كنت أعرفك.

ضحكت وعانقته عناقاً أثار فيه مشاعر لم يعهدها من قبل. بدا وكأنها تعرفه جيداً وتعرف نقاط ضعفه.

دمدم: «أيتها الساحرة».

ـ همم!

ـ لقد شغلت فكري منذ التقينا، كاد يقوّدني ذلك إلى الجنون.

همست بصوت صدمه كتيار كهربائي: «لمَ أضعنا كل هذا الوقت؟»

فقال: «ومن يأبه؟ ما دمنا لا نضيّع المزيد منه».

كان عناقه مثله، قوياً ونابعاً من القلب، بعيداً عن الحذاقة، إنما مفعماً بالدفء والكرم والعطاء. بدا لها فريداً من نوعه، لا يشبه أيّ شيء حصل في العالم أو قد يحصل. وعلمت أنها ستحلم به طيلة حياتها.

تبادلا النظرات بعيون لمعت في الظلام. ضحكا معاً وكأنهما يسخران من نفسيهما ومن غدهما. فما يجمعهما جبل ويشعرهما بالرّضا، لكنهما سيودّعان بعضهما البعض غداً.

كانت تعلم أن ليو رجل يمكن للمرأة أن تقع في حبّه بسهولة، لكنها تأكّدت من ذلك الآن. فقد ضمّها بين ذراعيه بحنان ودفء، وكأنه يريد منها أكثر من المتعة الآنية الجسدية.

كيف يمكن لفتاة أن تحافظ على استقلاليتها وحريتها مع رجل يتصرّف على هذا النحو؟

وضعت ذراعيها حوله وضمّته هي أيضاً بشغف حنون، في وداع أخير قبل الرحيل.

٧ ـ لن أنساك

أسوأ ما في المطارات هو أنه يتوجّب عليك الوصول باكراً، فيطول الوداع إلى ما لا نهاية، ما يزيد الألم. وخطر لسيلينا أن الأمر يصبح أسوأ إذا ما كنت تنتظر من الآخر أن يقول شيئاً، أنت نفسك لا تعرف ما هو. لكن مهما كان هذا الشيء، فإنه لم يقله.

أوصلته إلى مطار دالاس، فتحققا من موعد إقلاع الرحلة المتوجّهة إلى أطلنطا، وسجّلا حقائبه ثم بحثا عن مقهى حيث جلسا يشربان القهوة. لكن ليو قفز فجأة من مكانه وقال: «تعالي معي».

سألته فيما كان يمسك بيدها ويجرّها على عجل: «إلى أين».

ـ أريد أن أشتري لك هدية قبل أن أرحل، وقد أدركت الآن ما هي.

قادها إلى متجر بيع الهواتف الخلوية، وقال: «شخص مثلك، يتنقل بقدر ما تتنقلين، يحتاج إلى مثل هذه الأجهزة».

ـ لم يكن بإمكاني شراء هاتف من قبل.

شعرت بسعادة قصيرة الأمد حين أدركت أنه يريد البقاء على اتصال بها. لكن سعادتها لم تدم عندما تذكرت أنه سيرحل، وأنها قد لا تراه ثانية.

اختارا الهاتف معاً واشترى لها بطاقة السّاعات الثلاثين الأولى. كتبت له الرقم على ورقة صغيرة ورائته وهو يخفيه في محفظته.

ـ حان الوقت لأمرّ على دائرة الجوازات.

فقالت على عجل: «ليس بعد. لدينا الوقت لنشرب فنجاناً آخر من القهوة».

تملّكها شعور مروّع بأن الأمور تتسارع وتسير بها نحو حافة هوّة سحيقة. إنها الوحيدة القادرة على وضع حدّ لهذا، لكنها لا تعرف السبيل إلى ذلك. لم تستطع أن تجد الكلمات المناسبة، فهي لم تنطق بها قط، وبالكاد تعرفها. لقد حاولت جهدها الليلة الماضية لتكشف له حقيقة شعورها. والآن، ها هو قلبها ينفطر فيما يبدو هو غافلاً عما يجري.

أمضت الدقائق القليلة الأخيرة جالسة قبالته، تحاول أن تتذكر كل حركة من حركاته وكل تفصيل من ملامحه وكل نبرة من نبرات صوته.. سوف يرحل وينساها.

لم تبتسم يوماً ابتسامة متألقة بقدر ابتسامتها اليوم. ومن ثم سمعا النداء «إلى المسافرين...».

فقال ليو وهو يهب واقفاً: «أظن أن الوقت حان...»

رافقته تقريباً إلى البوابة، حيث توقف ولمس وجهها بلطف، قال: «ما كنت لأفوّت هذا لقاء كنوز العالم بأسره».

فقالت بخفة وهي تسدد لكمة خفيفة إلى ذراعه: «أحقاً؟ ستنساني ما إن تبدأ المضيفات بإغرائك بأهدابهن الطويلة».

لكنه لم يبادلها الابتسام بل قال: «لن أنساك أبداً يا سيلينا».

بدا وجهه منقبضاً وظنّت للحظة أنه سيضيف شيئاً ما إلى ما قاله. انتظرت فيما راح قلبها يخفق بأمل جامح، لكنه اكتفى بأن عانقها عناقاً سريعاً.

ـ لا تنسيني.

ـ من أفضل لك أن تتصل بهذا الرقم لتحرص على ألا أنساك.

ـ سأفعل.

وعانقها مجدداً قبل أن يتركها ويرحل. حاولت جاهدة أن تجد في عناقه الأخير صدى لعناق الليلة الماضية، لكنها لم تفلح. فلم يكن ليو سوى رجل يرغب في العودة إلى موطنه وبيته. عندما وصل إلى البوابة، التفت ولوّح لها. بادلته التلويح، وقد حافظت على الابتسامة التي تعلو وجهها بفضل إرادتها الحديدية... ثم رحل..

لم تغادر على الفور، كما كانت تنوي أن تفعل، بل انتظرت عند النافذة حتى أقلعت الطائرة، ثم راقبتها إلى أن غابت عن ناظريها بين الغمام. عندئذ، قفلت راجعة إلى المرآب، حيث جلست خلف المقود وراحت تحدّث نفسها. ما الأمر! إنهما كمثل مركبين التقيا في بحر الحياة ثم سار كل منهما في طريقه. هذا كل ما في الأمر. أمامها يمتد مستقبل واعد أفضل مما عرفت يوماً، وهذا ما عليها أن تفكر فيه. ضربت يدها بقوة على المقود، فهي لم تحاول يوماً أن تخدع نفسها بالأكاذيب، لكنها تحتاج الآن إلى كذبة تعزّيها وتواسيها لتتغلب على ما تمرّ به.

قالت بغضب: «كان عليّ أن أقول شيئاً، أيّ شيء يجعله يدرك. ربما كان ليطلب مني أن أرافقه. آه، من أحاول أن أخدع؟ كان بإمكانه أن يطلب مني مرافقته، لكنه لم يفكّر في ذلك قط. لن يتصل بي. والهاتف لم يكن سوى هدية وداع. كفّي عن التصرف بغباء يا سيلينا، لا يمكنك أن تبكي في مرآب».

بدا وكأن الرحلة بين أطلنطا وبيزا ستستمر إلى الأبد، وليس إلى يوم جديد وحسب، بل إلى بُعد آخر وعالم آخر. حاول ليو أن ينام لكنه عجز عن ذلك. غادر الطائرة وقد أصابه دوار من شدّة الإرهاق، وشقّ طريقه عبر دائرة الجوازات والجمارك. وشعر بالغرابة مع أنه عاد إلى موطنه.

توجّه نحو صف سيارات الأجرة، وهو مستغرق في احتساب الوقت الذي يتطلّبه وصوله إلى منزله بحيث لم ينتبه إلى صوت شخص

خلفه. لم يرَ من ضربه أو عدد الذين اعتدوا عليه، علماً أنّ الشهود أشاروا لاحقاً إلى أنهم كانوا أربعة. كل ما عرفه هو أنه سقط أرضاً فجأة بعد أن دفعه أشخاص أغراب. سمع صراخاً وصوت خطى تفرّ. جلس يتحسّس رأسه متسائلاً عن سبب وجود هذا العدد من رجال الشرطة حوله. وامتدّت الأيدي لتساعده على الوقوف على قدميه. وسأل: «ماذا حدث؟»

ـ تعرّضت للسرقة سيدي.

عبس ومدّ يده إلى حيث يضع محفظته، فلم يجدها. كان رأسه يؤلمه إلى حدّ أنه لم يستطع أن يفكّر أكثر. واستدعى أحدهم سيارة إسعاف تمّ نقله إلى مستشفى محلي.

استفاق في اليوم التالي ليجد شرطياً يقف قرب سريره، ويحمل محفظته المفقودة. قال الرجل: «وجدناها في أحد الأزقة».

وكما هو متوقّع، كانت المحفظة فارغة. لقد اختفى المال وبطاقات الاعتماد. لكن ما روّع ليو هو اختفاء الورقة الصغيرة التي تحمل رقم سيلينا.

أخذه ريتزو، المشرف على مزرعته، من المستشفى وقطع معه الخمسين ميلاً التي تفصله عن منزله بيللا بودينا. وما إن وجد ليو نفسه وسط تلال توسكانا حتى بدأ يسترخي. مهما كانت حياته مضطربة، فإن غرائزه تشير عليه بأن ما يهم فعلاً هو أنه عاد إلى موطنه، حيث تنمو الكرمة وتمتد حقول القمح تحت أشعة شمس ساطعة.

كان يتمتع بشعبية بين العمال لأنه يدفع لهم بسخاء ويثق بهم ويتركهم يهتمون بأعمالهم. راحوا يلوّحون له وينادونه سعيدين بعودته لدى مروره بالقرب منهم.

كانت أراضي أسرة كالفاني شاسعة. وخلال اجتيازهما الأميال القليلة الأخيرة، راح يتأمّل حقول قريته الخاصة. موريتزا، تجمّع

صغير من الأبنية تعود إلى القرون الوسطى، يقوم على أراضي أسرة كالفاني وعند سفح المنحدر الذي يقود إلى منزل ليو. شارع هذه القرية الرئيسي يلتف حول الكنيسة وحول بركة صغيرة يسبح فيها البط، قبل أن يقود إلى خارج القرية، ومن ثم عبر حقول الكرمة المزروعة على المنحدر لتداعبها الشمس.

في الأعلى، يقع المنزل الذي بني في القرون الوسطى أيضاً، والذي يطلّ على منظر رائع في الوادي. دخل إلى المنزل بتهيبة وارتياح ورضا، ورمى حقائبه على الأرض ثم التفت من حوله يتأمّل الأثاث المألوف الذي يحبه. ها هي جينا قد حضّرت له طبقه المفضّل، وجهّزت له عصيره المفضّل، فيما راحت كلابه المفضّلة تحوم حول قدميه.

تناول وجبة ضخمة وطبخ قبلة امتنان وشكر على خدّ جينا ثم توجّه إلى الغرفة التي يستخدمها كمكتب والتي يدير منها ملكيّته. وبعد ساعتين أمضاهما مع أنريكو، مساعده الذي أشرف على الأعمال المكتبية خلال غيابه، تبيّن له أنّ هذا الأخير قادر على إدارة هذه الأعمال بشكل ممتاز ومن دون مساعدته. لم يكن يحتاج إلى المزيد. غداً، سيجول على ممتلكاته مع رجال قريبين من الأرض بقدره.

أمضى الساعات التالية وهو يتحدّث إلى عائلته عبر الهاتف، ليسمع آخر الأخبار. وأخيراً، خرج ووقف يتأمّل القرية التي تلألأت بالأنوار. وقف هناك طويلاً، يستمع إلى النسيم الذي تغلغل في الأشجار وإلى صوت الأجراس التي تردّد صداها في الوادي. وفكّر في أنه لم يعرف يوماً مثل هذا السلام والجمال. ولكن...

إنها العودة الممتازة إلى المكان الممتاز. لكنه شعر فجأة بالوحدة كما لم يفعل قط في حياته.

استلقى في سريره وحاول أن ينام، إنما من دون جدوى، فما كان منه إلا أن نهض ونزل إلى مكتبه. إنه الصباح في تكساس، وكان بارتون

من أجاب على الهاتف، فسأله آملاً: «هل سيلينا لا تزال عندكم؟»

ـ لا، فقد غادرت فور رحيلك. عادت إلى هنا لتأخذ جيبرز ثم رحلت. ألم تكن رائعة؟ جيبرز هو الجواد الذي تحتاجه. ستصبح نجمة مع هذا الجواد.

ـ عظيم، عظيم!

حاول ليو أن يبدو سعيداً ومرحاً، لكن، ولسبب لم يشأ أن يتعمق فيه، لم يسرّ لسماع أخبار نجاحها في الجهة الأخرى من العالم.

ـ هل اتّصلت بكم؟

ـ اتصلت بالأمس لتسأل عن البوت، فقلت لها إنه بخير.

ـ هل سألت عني؟

كان قد وعد نفسه بألا يطرح هذا السؤال، لكنه خرج من بين شفتيه رغماً عنه.

ـ لا، لم تأتِ على ذكرك. لكن إذا ما اتّصلت بها فأنا واثق...

لِمَ عليّ أن أتصل بها في حين أنها لم تهتم حتى لتسأل عني؟ هذا ما خطر له.

ـ بارتون، لا يمكنني أن أتصل بها. تعرّضت للسلب وفقدت الورقة التي كتبت عليها رقم هاتفها الخلوي. هل لي أن أحصل عليه؟

ـ كنت لأعطيك إياه لو أني أملكه. لكنني لا أعرف كيف أتصل بها.

ـ عندما تتصل في المرة القادمة، هلّا شرحت لها ما حصل وطلبت منها أن تتصل بي؟

ـ طبعاً.

ـ هل قالت لك إلى أين تتوجه؟

ـ رينو، على ما أعتقد.

ـ سأترك لها رسالة هناك.

حاول أن يركّز على زيارته القادمة إلى البندقية، حيث سيحضر زفاف شقيقه الأصغر غويدو، من خطيبته الإنكليزية دولسي. وسيقام زفاف آخر قبل زفاف شقيقه بيوم، إذ سيتزوج عمه، الكونت فرانشيسكو كالفاني، من ليزا، مديرة منزله السابقة وحب حياته. سيكون هذا الزفاف خاصاً ومختصراً.

كان ليو ينتظر بشوق مناسبة عائلية مفرحة، لكنه شعر الآن، وبشكل مفاجىء، بأنه لا يرغب في حضور أيّ عرس.

أين هي؟ ولِمَ لم تتصل به؟ هل نسيته بهذه السهولة؟

أرسل أكثر من رسالة إلكترونية على موقع الروديو في رينو، فصّل فيها تحركاته في الأيام القادمة، كما ترك رقم هاتف عمه في البندقية، ورقم هاتفه الخلوي. وذكّرها برقم هاتف منزله على سبيل الاحتياط. بقي حتى اللحظة الأخيرة متعلقاً بأمل أن تتصل به، لكن الهاتف ظل صامتاً. وأخيراً، غادر منزله متوجهاً إلى البندقية.

لم يكن ليو يوماً رجلاً كتيماً. وكان من النادر أن تخرج امرأة من حياته رغماً عنه، لكنه يتصرف عادة بشكل إيجابي إذا ما حصل هذا. والعالم مليء بالنساء الضاحكات، السهلات المعشر على غراره، واللواتي يسعدهن أن يمضي الوقت معهن. لكن هذه الفكرة لم تفرحه.

استقل القطار من فلورنسا إلى البندقية حيث ينتظره مركب العائلة لينقله إلى قصر كالفاني الواقع على القناة الكبرى. وعندما وصل، وجد العائلة تتناول طعام العشاء. عانق ليزا ومن ثم عمه، ودولسي، وهاريت ولوسيا، والدة ماركو. كان غويدو وابن عمه ماركو موجودين أيضاً. وبعد أن تصافحوا، انتهى الترحيب.

حاول أن يبدو كعادته أثناء تناول الطعام، ولعله خدع أقاربه من الرجال. لكن عيون النساء أكثر حدّة في هذه المسائل، وما إن انتهت الوجبة حتى أحاطت به دولسي وهاريت وقادتاه إلى الأريكة كزوج من

كلاب الرعاة يسوق أسداً، ثم أجلساه بينهما.

قالت هاريت: «وأخيراً وجدتها».

سألها بارتياك: «هي؟»

ـ تعرف ما أعني. هي! المرأة المناسبة. لقد علقت في الشباك.

سألته دولسي: «ما اسمها؟»

توقف عن المواربة إذ لن يتمكّن من خداعهما. واعترف: «اسمها سيلينا، التقيتها في تكساس، وقد شاركنا معاً في الروديو».

وصمت. فسألتاه بشوق: «ومن ثم؟ ومن ثم؟»

ـ رحلت كما رحلت أنا.

فقالت دولسي: «إذن، ثمة قاسم مشترك بينكما».

وافقت هاريت: «تزاوج عقلين متماثلين».

فاقترحت دولسي: «لا أظن أن للعقل علاقة بذلك».

ـ فعلاً.

قال ليو هذا، وهو يتذكر نعومة سيلينا بين ذراعيه. وللحظة، شعر وكأن أنفاسها الحارة تلفح بشرته وتدعوه إلى شغف وحنان عظيمين. وأضاف بشكل مفاجئ: «كان الأمر رائعاً».

فقالت له هاريت: «كان عليك أن تصطحبها معك لتقابلنا».

وسألته دولسي: «لكن ألم تتبادلا رقمي هاتفيكما وعنوانيكما».

ـ ليس لديها عنوان، فهي تجول من روديو إلى آخر وتعيش حيثما تصل. كنت أملك رقم هاتفها الخلوي، لكن... لا بدّ أنكما تعلمان أنّ محفظتي سُرقت مني، وكانت الورقة في داخلها. حاولت أن أتعقّبها عبر الإنترنت، لكن يبدو أني، ولسبب ما، أفقد أثرها في كل مرّة. وقد لا أراها ثانية.

أصدرت الشابتان أصوات تعاطف، لكن ليو شك في أنهما تجدان الأمر مسلّياً في سرّهما. ولعله كذلك. ليو كالفاني، الرجل الحرّ، فقد

شهيّته لأن امرأة شابة، ذات طبع متوقّد، اختفت من حياته. يا له من أمر مضحك! وبعد حين، انضمّ إلى الرجال الآخرين، لكن حتى رفقتهم لم تنجح في تسكين ألمه. عريسان سعيدان وخطيب ليسوا ما يحتاجه في مزاجه الحالي التعيس.

وبدأ الجمع يضحك تدريجياً، فاختفى غويدو ودولسي معاً ليضعا اللمسات الأخيرة على تحضيرات عرسهما الوشيك. وغادر ماركو وهاريت ليتنزها في شوارع البندقية. خرج ليو إلى الحديقة حيث وجد الخالة لوسيا جالسة بهدوء، تتأمل النجوم في السماء.

قال ليو وهو يجلس قربها: «أظن أن ماركو وهاريت سيحددان موعد زفافهما في أيّ لحظة».

فقالت لوسيا بلهفة: «أرجو ذلك. أعلم أنهما خرجا معاً الآن، وآمل أن يعودا وقد اتّفقا على التفاصيل».

سألها بفضول: «أنت متحمسة جداً لهذا الزواج، أليس كذلك؟ علماً... حسناً، أنه ليس زواج حب، أليس كذلك؟»

ـ أتعني أني دبّرته؟ نعم، لقد فعلت وأنا لا أنكر ذلك.

ـ ألم يكن من الأفضل تركه يختار عروسه بنفسه؟

ـ أخشى أني كنت لأنتظر طويلاً. يجب أن يكون في حياة ماركو امرأة، وإلّا سينتهي به الأمر وحيداً، وهذا فظيع.

ـ ثمة أمور أسوأ من الوحدة يا خالة.

ـ لا يا عزيزي، ما من شيء أسوأ.

لم يتمكّن من أن يجيبها. ولأول مرّة في حياته، شعر بأن ما تقوله صحيح. واستفهمت بلطف: «أظنك بدأت تكتشف ذلك للتوّ، أليس كذلك؟»

هزّ كتفيه بلا مبالاة وأجاب: «إنها حالة نفسية وحسب. لقد أطلت الغياب. وبعد أن عدت وجدت الكثير من العمل

بانتظاري...».

واخفض صوته.

ـ صفها لي.

أخبرها قصته مجدداً، أطال هذه المرة في وصف سيلينا. ولأول مرة راحت الكلمات تنساب من فمه بسهولة، فاستطاع أن يتكلم عن الحلاوة واللطف خلف القشرة الشائكة، وكيف استطاع اكتشاف هذه الطبيعة بلطف، وكيف أسرته.

سأله لوسيا: «أنت تحبها كثيراً، أليس كذلك؟»

فسارع يدافع عن نفسه: «لا، لا أظن أني... في الواقع، لا أستطيع منع نفسي من أن أقلق عليها. فليس لديها من يهتم بها. لم يكن لديها أحد يوماً. لم تعرف سوى أناس حاولوا استغلالها. عائلتها الوحيدة هي أليوت. ولهذا، انفطر قلبها حين أدركت أن أيامه ولّت... إنها وحيدة من دونه».

ـ وفقاً لما قلته، فهي تستطيع العناية بنفسها، وقبضتاها قويتان.

ـ يمكنها أن تعتني بنفسها من هذه الناحية، لكنها وحيدة في داخلها. لا أظن أني قابلت يوماً شخصاً وحيداً بقدرها. إنها تعتقد أنها أكثر سعادة هكذا.

ـ لعلها كذلك. فقد قلت للتو إن ثمة أمور أسوأ.

ـ كنت مخطئاً. عندما أفكر في أنها ستستمر بحياتها على هذا النحو لسنوات... وهي تخدع نفسها مدّعية أنها سعيدة، فيما هي تنعزل عن العالم أكثر وأكثر...

ـ قد لا يحصل هذا. ستلتقي شاباً لطيفاً وتتزوجه. وبعد سنوات قليلة، قد تلقاها صدفة فتكتشف أنها رزقت بطفلين وتنتظر الثالث.

عبس لو وقال: «أنت ذكية يا خالة. تعلمين أني لا أريد ذلك».

ـ أتساءل ما الذي تريده فعلاً.

ـ مهما كان ما أريده، أظن أني لن أناله.

راحت الأضواء تخفت تدريجياً على طول القناة. وخلفهما، بدأت الساحة الكبرى تقفل محالها ومقاهيها. وقف لو وساعد لوسيا على النهوض بدورها. وقال: «أشكرك لأنك أصغيت إليّ. أخشى أن دولسي وهاريت تسخران مني وتعتقدان أني مهرج بعض الشيء».

فقالت لوسيا وهي تضغط على يده: «حسناً، كانت حياتك مليئة بالورطات والأشراك القصيرة الأمد. لكن، إن كانت سيلينا هي المرأة المناسبة لك فستجدها مجدداً. علماً أني أظنها مجنونة إن لم تأتِ للبحث عنك».

ردّ لو بكآبة: «لعلها لا ترغب في أن تجدني. حتى وإن فعلت، فما الفائدة بالنسبة إليّ؟ فهي لا ترغب في حياة عادية، في مكان واحد، مع زوج وأولاد».

ـ لم أكن أعلم أنّ أفكارك وصلت إلى هذا الحد.

فقال على الفور: «لم تصل. كنت أتحدّث بشكل عام».

ـ حسناً، حسناً.

ـ إنها تحب الترحال، الانتقال من مكانٍ إلى آخر، عدم معرفة ما يحمله الغد. لذا، لن أتمكّن من إسعادها على الأرجح.

ـ كُفّ عن هذا الكلام. إذا فُرّ لحبك أن يكون، فسيكون. والآن، لدينا حفل زفاف في الغد، وسنستمتع بوقتنا جميعاً.

وصلت سيلينا في وقت متأخر إلى باحة مزرعة فورتين حيث توقفت لترتاح. وكان بارتون في انتظارها.

ـ سمعت أنك أبليت حسناً في ريتو.

فردّت: «سأصبح مليونيرة قريباً. بارتون، هل من خطب؟».

ـ اتصل بي لو.

ـ أحقاً؟

ـ لا تدعي أنك لا تهتمين للأمر. أظنك في حال سيئة كحاله.

ـ ولِمَ هو في حالة سيئة؟

ـ لأنه أضاع رقم هاتفك. كاد يجن وراح يتصل بك هنا وهناك، ويترك لك الرسائل كي تعاودي الاتصال به.

ـ لكني لم اكن أعلم بذلك...

ـ لا، اضطررت للتغيّب فترة، لذا تركت خبراً بأن يعلموك بما يجري إذا ما اتصلت. لسوء الحظ، تركت الرسالة مع بولي. لا أدري إن كان كثير النسيان، أو أن الأمر يتعدّى ذلك...

ونظر إلى وجهها ثم أردف: «هل لذلك علاقة بالحادثة التي تعرّض لها بولي حين «داس على القذارة؟»»

ـ حسناً، لم أشأ أن أخبرك، بعد أن كنت لطيفاً للغاية معي...

ـ اعلمي أني رغبت دائماً في لكمه بنفسي.

ـ لقد تصرّف بشيء من الوقاحة، فقمت... حسناً...

ـ أنت من فعل ذلك، وليس ليو؟

ـ لا، لم يكن ليو. فقد وصل بعد أن انتهى الشجار. لكن، لعلي تماديت.

فقال بارتون مستمتعاً: «لا، لم تتمادي. لكنك أحسنت فعلاً حين لم تخبري والدته، فهي تبالغ في ردات فعلها على هذه المسائل. حسناً، حسناً، لقد تمكّن من الثأر منك».

ـ ربما عليّ أن أتصل بليو.

لكن سيلينا بدت غامضة وشاردة الذهن.

ـ ألا ترغبين في ذلك؟

ـ بالطبع أرغب في ذلك، لكنه بعيد جداً. وسيكون شخصاً آخر في بلاده.

ـ ما عليك إلّا أن تذهبي وتتعرّفي عليه في بلاده. اكتشفي ما إذا

كان بإمكان تلك البلاد أن تصبح بلادك. سيلينا، عندما يستمر رجل ما في الاتصال، ويبدو عليه الاضطراب كهذا الرجل، فهذا يعني أنّ لديه ما يقوله للمرأة التي يبحث عنها. وهذا الكلام لا يقال عبر الهاتف.

ـ أتعني أن... أذهب أنا إلى إيطاليا؟

ـ إنها ليست الجهة الأخرى من القمر. تعرفين أني سأعتني بجيرز واليوت أثناء غيابك. لديك مال الجوائز، فما الذي يمنعك من السفر؟

وعندما لم تجبه، راح بارتون يقلّد صوت الدجاجة وحركاتها.

ـ أنا لست جبانة كالدجاج.

ـ لست جبانة في الحلبة وهذا أمر اكيد، فأنا لم أر يوماً من هو أشجع منك. لكن هذا الأمر سهل. أما العالم فمخيف أكثر، ربما عليك أن تفكري في ذلك.

* * *

في طريق عودته إلى منزله، كان ليو يحاول أن يقنع نفسه بأن الأمور ستحسن. فهذه طريقة القدر في إعلامه بأنه وسيلينا لن يجتمعا.

كان الزفاف رائعاً، لكن رؤية شقيقه سعيداً للغاية بعد أن أصبح زوج دولسي جعله غير راضٍ عن نصيبه. وهذا لا يعني أنه كان يفكر في الزواج. لكن مجرد تخيّل سيلينا في الثوب الأبيض الناصع والمخرّم الذي اختارت دولسي أن ترتديه، أعاد هذه الفكرة إلى الواجهة. على الأرجح، ستفضّل سيلينا أن تتزوّج وهي تعتمر قبعة طويلة وتنتعل حذاء رعاة البقر.

عندما وصل إلى منزله، كان قد حسم المسألة في فكره. لقد أمضيا وقتاً ممتعاً معاً، لكن كل هذا انتهى، كما ينبغي له. لن يفكر بها ثانية.

كانت جينا قد انتهت لتوها من ترتيب سريره. حيّته واتجهت نحو النافذة حيث تركت منفضة الغبار. وشرعت تقول: «أراد رينزو أن

يراك بعد الظهر، لكي يتمكن. . . من هذا يا ترى؟»

ـ من؟

وتقدم ليقف قربها عند النافذة المطلّة على الطريق الذي يصل من مورنزا.

شخص طويل ونحيف، يرتدي بنطلوناً من الجينز وقميصاً ويحمل حقيبتين، كان يتجه نحو المنزل. كانت المرأة تتوقف أحياناً لتنظر إلى الأعلى، ويدها تظلل عينيها. بدت بعيدة جداً فلم يتمكن ليو من رؤية وجهها، لكنه عرف التفاصيل الأخرى كلها، من مشيتها المتمايلة إلى جانب رأسها حين تميل به إلى الخلف. قالت جينا: «لا بدّ أنها غريبة عن هذه البلاد، لأنها. . . سيدي؟»

لم تجد مستخدمها إلى جانبها. لكنها سمعت وقع خطاه السريعة وهو ينزل السلالم، ثم رأته في الأسفل يركض بسرعة جعلت جينا تظن أنه سيقع في الوادي. رمت الشابة حقيبتيها وبدأت تركض أيضاً. وفي اللحظة التالية، ارتميا في أحضان بعضهما البعض وقد نسيا بقية العالم.

نادت جينا إحدى الخادمات: «سيليا، لدينا ضيفة. اتركي ما تفعلينه وجهزي لها غرفة».

وأضافت وهي تتأمل الشكلين المتعانقين: «وأظنها ستطيل الإقامة».

٨ ـ اعترافات رجل

ـ أخبريني أني لا أحلم. أنت فعلاً هنا!

ـ أنا هنا، أنا هنا! المسني.

راحت سيلينا تبكي وتضحك في آن معاً. بذل قصارى جهده لطمأنتها فسحقها في عناق قوي وتشبّث بها.

ـ لطالما تخيّلتك وأنت تسلكين هذا الطريق، ليتبيّن لي لاحقاً أنها مجرد خدعة من الضوء.

ـ ليس هذه المرة. ليو، هل أنت سعيد حقاً لرؤيتي؟

وفجأة، خذلته الكلمات ولم يعد يجد تلك التي تعبّر عن مشاعره. هل هو سعيد لرؤيتها؟ كل ما يعرفه هو أن الغصّة في حلقه جعلت من الصعب عليه أن يتكلم. وقالت سيلينا مذهولة: «أنت تبكي».

ـ لا، أنا لا أبكي. وحدهم الضعفاء يبكون.

ذكّرها بكلماتها الخاصة، لكن عينيه بدتا رطبتين، ولم يحاول تجفيفهما. إنه لاتيني، وقد تربى على ألا يخجل من مشاعره وانفعالاته. كما لم يكن يرغب في إخفاء هذه المشاعر عن هذه المرأة.

أمسك بوجهها بين راحتيه، وراح يتأملها بشوق وحنان قبل أن يعانقها عناقاً طويلاً. تجاوبت سيلينا مع عناقه من كل قلبها، مدركة أنها قطعت هذه المسافة كلها لهذا السبب، وأنْ ما من شيء يمكن أن يبعدها عنه.

حمل إحدى حقيبتي سيلينا تحت إبطه والأخرى في يده، ثم وضع

يده الحرّة حول خصرها. وعندئذ، صعدا التلة معاً متوجّهين إلى المنزل. سأله سيلينا بعد أن رأت بعض الوجوه عند النوافذ: «هل أسرتك هنا لتزورك؟».

ـ لا، إنهن...

ومنع نفسه من أن يقول الخادمات، فقال: «بنات أخوة جينا».

وكان هذا صحيحاً، فعندما يحتاج لاستخدام شخص جديد، يكتفي بأن يعلم جينا فتأتي له بشخص مناسب من أسرتها الكبيرة. وبعد قليل اختفت الوجوه، وعندما وصلا إلى الباب لم يجدا في استقبالهما سوى جينا التي ابتسمت مرحّبة وأعلنت أن غرفة الآنسة تُجهّز وأن المرطبات ستُقدّم على الفور.

تركتهما جينا، فأخذ ليو سيلينا بين ذراعيه مجدداً، وأدناها منه ليريح رأسه على شعرها. وسألته سيلينا: «كيف علمت بقدومي لتحضّر لي غرفة؟».

ـ رأتك وأنت تصعدين التلة، وعندما قمت... وعندما قمنا... حسناً، أظن أنّ الجميع يعرف بقصتنا الآن.

كادت تسأله ما هي «قصتهما» برأيه، لكنها عدلت عن رأيها، فهي نفسها لا تعرف الجواب. وهذا ما جاءت لاكتشافه هنا. وفي هذه اللحظة، ما من شيء يهم بقدر السعادة التي غمرتها لوجودها معه. في هذا البلد الغريب الذي لا تعرف لغته، شعرت بأنها وصلت إلى بيتها وموطنها، لأنه هنا ولأنه جزء منه.

سألها ليو: «لمَ لم تستقلّي سيارة أجرة إلى هنا؟».

ـ لم أعرف كيف أقول له عنوانك. وجدت ياصاً، على مقدمته لافتة كُتب عليها مورنزا، لكني لم أكن أعلم أنّ عليّ شراء التذكرة من محل السكاكر أولاً. وعندما فعلت، كان الياص قد رحل. حسناً، اسخر مني بقدر ما تشاء.

كان يضحك لطريقتها في الكلام، لكنه سيطر على نفسه وقال: «أنا آسف عزيزتي، لم أستطع منع نفسي. إنها طريقتك في رواية ما حدث. نحن مجانين بعض الشيء في إيطاليا، ونشتري التذاكر من محال السكاكر».

ـ وماذا يحصل لو كانت محال السكاكر مقفلة؟

ـ نسير.

ضحكت ضحكة رنانة. وأنزل رأسه حتى أراح جبهته على جبهتها، وهو يبتسم برضا وسعادة لوجودها معه هنا. ثم قالت: «وهكذا، انتظرت الياص التالي، ثم عرفت منزلك من وصفك له».

ـ لكن، لمَ لم تتصلي بي لآتي وأستقبلك؟

ـ حسناً... أنت تعلم...

طوال الرحلة، عذّبتها فكرة ألّا يرغب في وجودها هنا، وأن تسمع الحيرة والارتباك في صوته إذا ما اتّصلت. لعله اتصل بها في تكساس ليقول لها ألّا تتصل به لأن ما حصل بينهما مجرد غلطة. وحده وجودها فوق الأطلسي منعها من التراجع والترجّل من الطائرة.

ووعدت نفسها بأن تعود على الفور بعد أن تحطّ الطائرة، أو أن تتصل به، أو أن تفعل أي شيء بدلاً من أن تقصد منزله. لكنها عادت تسمع كلمات بارتون حين نعتها بالجبن، فأجبرت نفسها على المضيّ قدماً.

رافقتها إلى الغرفة التي أتمت الخادمات تجهيزها للتو، فراحت تتأمل المنزل بجدرانه الحجرية الضخمة وهما يصعدان إلى الطابق العلوي. إنه كما وصفه بالضبط، باستثناء أنه أكبر بكثير مما تخيّلت.

غرفتها أيضاً كبيرة جداً، وأرضيتها من الخشب الملمّع. أما السرير فهو أكبر سرير رأته في حياتها، مع ظهر من خشب الجوز المحفور. وتحمي النوافذ مصاريع من الخشب السميك التي تمنع دخول الحرّ.

عندما فتحتها جينا، تمكّنت سيلينا من الخروج إلى شرفة صغيرة لتأمّل الوادي فكان أجمل مشهد ريفي رأته يوماً، إذ تمتد التلال على مدى النظر، خضراء وزرقاء، فيما تخفي أشجار الصنوبر الحدود.

كان الطقس لا يزال دافئاً بما يكفي لتناول العشاء في الخارج، وهما يشاهدان غروب الشمس. وقدّمت لهما جينا حساء السمك، وهو خليط من الحبّار والقريدس وبلح البحر والثوم والبصل والطماطم. شعرت سيلينا وكأنها ماتت وصعدت إلى الجنّة. قالت وهي ترتشف العصير: «عدت لأجد بارتون قلقاً ومضطرباً، فقد ترك الرسالة مع بولي الذي «نسيها»».

فغامر ليو قائلاً: «لكن جاذبيّتي التي لا تقاوم شدّتك رغم ذلك؟».

فردّت بحزم: «جئت لأشاهد الروديو في غروستو، هذا كل ما في الأمر».

ـ ولا علاقة للأمر بي؟

ـ لا علاقة للأمر بك، فلا تتباهى.

ـ حسناً سيدتي.

ـ وتوقّف عن الابتسام، هكذا!

ـ لم أكن أبتسم.

ـ بل فعلت، كالقطة التي أكلت الجبن. اجتيازي نصف العالم بحثاً عنك لا يعني شيئاً، هل تفهم هذا؟

ـ طبعاً، وتمضيتي الأسابيع القليلة الماضية وأنا أبحث كالمجنون عبر الأنترنت لأحاول الوصول إليك ومعرفة أخبارك، لا تعني شيئاً أيضاً.

ـ حسناً، اتفقنا!

ـ اتفقنا!

وجلسا صامتين يتأمّلان بعضهما البعض بسعادة.

قالت: «فعلتها مجدداً، عندما وصلت إلى هنا ناديتني بالإيطالية، لكنك لم تقل لي ما تعنيه الكلمة».

كانت تنظر إليه، فقال وهو يمسك بيدها: «عندما ينادي رجل امرأة بهذه الكلمة ومعناها...».

وفجأة، وجد صعوبة في الكلام. فقد اعتاد في الماضي أن يستخدم الكلمة بشكل عشوائي، من دون أن يعنيها. لكن الوضع تغيّر الآن ولم يبق لديه سوى الكلام القديم الذي لطالما أثار الجدال والنقاش.

قال: «هذا يعني أنها أكثر من عزيزة عليه، هذا يعني...».

وتوقّف عن الكلام مع وصول جينا لترفع الأطباق قائلة: «الطبق الرئيسي سيدي».

ابتسم ليو وترك الحديث عند هذا الحد. ستتاح له لاحقاً فرصة قول كل ما يرغب في قوله.

أنهيا الوجبة بالعسل والكيك بالجوز. وكانت عينا سيلينا تكادان تطبقان لشدّة تعبها. وأخيراً، أمسك ليو بيدها وقادها إلى الطابق العلوي ليتوقفا عند بابها، ثم قال بصوت ناعم: «تصبحين على خير، عزيزتي».

ـ تصبح على خير.

وداعب خدّها قبل أن يتركها.

استلقى في سريره من دون أن يغمض له جفن طيلة الليل تقريباً. وجودها في بيته، تنام في الغرفة المجاورة، جعله يشعر كرجل يختبئ كنزاً تحت سقفه. كان الكنز كنزه وسيحتفظ به، وسيحارب العالم بأسره من أجله إذا ما اضطره الأمر.

استيقظ مع بزوغ الفجر وتوجّه إلى النافذة ففتح مصراعيها ووقف على الشرفة الصغيرة. شعوره بالذهول لقدومها المفاجئ لم يفارقه بعد، فأراد أن يتأمّل مجدداً الطريق المؤدي إلى القرية، الطريق الذي لطالما نظر

إليه، وقد تملّكه الشوق إليها، حتى ظهرت في أحد الأيام.

ظلّ في النافذة المجاورة جعله يلتفت. رآها تقف هناك، لكنها لم تكن تنظر إليه بل إلى الوادي، وقد بدا وجهها هادئاً وماخوذاً، وكأنها في عالم آخر. وفيما كان يتأمّلها، رفعت رأسها بما يكفي لتمنحه ابتسامة قصيرة، ثم عادت مرة أخرى تتأمل الوادي.

لقد فهم الآن!

وضع عباءته على كتفيه وخرج من غرفته متوجهاً إلى غرفتها. وقف خلفها عند النافذة ووضع يديه على كتفيها بنعومة. عندما استندت إليه، أحاطها بذراعيه، فرقعت ذراعيها يدورها لتضعهما على ساعديه. وقفا هناك في أحضان بعضهما البعض، وقد تملّكهما شعور بالرّضا، شعور لا يشبه كل ما عرفه في حياته من قبل.

في الأسفل، لاحظا الوهج الناعم الذي راح يزحف نحو الوادي. في البدء، كان باهتاً، ثم راح يزداد قوة. بدا الضوء سحرياً، وكأنه من عالم آخر، واستمر لدقائق معدودة مباركة. بعدئذ، تغيّر وأصبح أكثر حدّة وقوّة، أصبح عادياً، جاهزاً ليوم عمل كبقية الأيام. ولم يبق منه سوى الذكرى. تنهّدت سيلينا تنهيدة رضا واكتفاء، تنهيدة هادئة بحيث شعرت بها حواسه بدلاً من أن يسمعها. ثم قالت: «هذا ما أردته. منذ أن أخبرتني عن الضوء، وأنا أتوق لرؤيته».

ـ وما رأيك؟

ـ إنه جميل كما وصفته. أجمل ما رأت عيناي يوماً.

قال: «يمكنك أن تريه في الغد أيضاً. أما الآن...».

وشدّها بنعومة إلى الخلف، وأخذها بين ذراعيه حيث اكتشفا نوعاً آخر من الجمال في عناق لم يرغبا في أن ينتهي.

لطالما تخيّل ليو اللحظة التي يعرّف فيها سيلينا على باري، الفرس التي أصبحت جاهزة للبيع منذ أشهر، لكن أنانيتها وحيويتها منعتاه من

بيعها بانتظار الشخص المناسب. وسيلينا هي هذا الشخص المناسب. كان يشبه في ذلك وقد تأكدت ظنونه بعد أن شهد حبهما من النظرة الأولى، وهو يعرف الآن الكثير عن الحب من النظرة الأولى. وخطر له أن يقدّم باري لسيلينا كهدية زفاف. وهو لم يعد يتهرّب من هذه الأفكار، فعلى الرجل أن يعرف كيف يتقبّل الأمر حين تنقلب حياته رأساً على عقب بسبب امرأة.

أمضيا أيامهما في التجوال على ظهري جواديهما بين حقوله وكرومه، وأمسياتهما في التسامر تحت ضوء القمر، ليفترقا على مضض بعد عناق طويل يحمّلانه مشاعرهما التوّاقة كلها. وفي إحدى الأمسيات، قال لها: «ابقي هنا، لا تتركيني مجدداً».

تململت قليلاً بقلق كما تفعل عند ذكر البقاء في مكان واحد، فأردف على الفور: «تولّي الاهتمام بالجياد، تولّي الاهتمام بي، بأحدنا أو بكلينا، كما تشائين».

رفعت رأسها وراحت تنظر إلى وجهه. كان ضوء القمر ينير الشرفة، راسماً الظلال على وجهها، فلم يسمع سؤالها لشدة استغراقه في تأمّلها.

همس: «ماذا قلت؟».

ـ قلت إن الوقت حان لتنهي شرح معنى تلك الكلمة الإيطالية التي لا تنفكّ تستعملها.

ابتسم لها ابتسامة حنون وقال: «هذه الكلمة تعني أنك أغلى عندي من العالم بأسره. فأنت حبي ومحبوبتي الوحيدة».

بعد أسبوع، قصدا ماريما، وهي منطقة جنوب توسكانا، تقع على الشاطىء. وهذه المنطقة معروفة غالباً باسم «الغرب التوسكاني»، إذ ترتع المواشي فيها بأعداد كبيرة، ولا تزال تستخدم فيها كفاءات رعاة البقر التقليدية.

ويحتفل بكل هذا سنوياً عبر إقامة روديو، يتألف من استعراض يخترق شوارع مدينة غروستو المجاورة كلها، وعرض يستمر طيلة بعد الظهر. اصطحب ليو سيلينا إلى المدينة ليلتقيا المنظّمين، واصفاً إنجازاتها بتعابير حارة.

عندئذ، فاجأته سيلينا بدورها. فطيلة الطريق إلى المدينة، كانت متمسكة بغرض عريض ومسطح، رافضة أن يراه ليو. وتبيّن لاحقاً أنها صورة له وهو راكب على ظهر الثور.

قالت: «أعرف الرجل الذي يلتقط الصور في الروديو، حتى للأشخاص الذين لا يربحون. بحثت عنه فوجدت معه هذه الصورة لك. تبدو رائعاً، أليس كذلك؟».

بدا مذهلاً، كان قد رفع إحدى ذراعيه في الهواء، كما رفع رأسه، فيما ارتسمت على وجهه ابتسامة عريضة تعكس شعوره بالسرور والانتصار.

قال: «لا يمكن للمرء أن يعرف أني سقطت أرضاً في اللحظة التالية».

تأمل أحد المنظّمين الصورة ثم سعل باحترام، وقال: «ربما بإمكانك يا سيدي أن تقدّم عرضاً مشابهاً على ظهر الثور في هذا الروديو».

فردّ ليو على عجل: «لا أظن ذلك. فلديهم في تكساس ثيران خاصة، تربّى لهذه الغاية وتتميّز بشراستها».

ـ أظن أننا لن نخيّب أملك يا سيدي. لدينا هنا ثور تمكّن حتى الآن من جرح رجلين حتى الموت...

جاهد ليو حوالى عشر دقائق ليتخلص من هذا المأزق الذي ازداد صعوبة بسبب ضحكة سيلينا.

قال لها وهما يخرجان: «قلت له إنك ستقدّمين عرضاً لسباق

البراميل».

ـ جيد. لكن الأمر لن يكون مسالماً إن لم تمتط أنت ذاك الثور.

ـ أغربي عن وجهي!

لم تقم عائلة ليو بالرحلة من قبل. لكنهم قادمون هذه السنة وبقوة، لأن الأخبار الجديدة وصلتهم، وهي أن ليو الذي يحب السيدات الممتلئات الجسم، وقع «ضحية» امرأة بارزة العظام، ذات قامة نحيلة ورأس أشبه بكتلة نار.

وهكذا، قرر غالبية أفراد أسرة كالفاني أن يتوجّهوا إلى المزرعة لقضاء الليلة قبل التوجّه إلى غروستو. لم يكن ينقص سوى ماركو. وسيأتي الكونت والكونتيسة كالفاني، برفقة غيدو ودولسي، من البندقية.

عندما علم ليو بما يخططون له وبأنّ مشاريعهم جارية على قدم وساق، أدرك أن يوم الاعتراف لا يمكن أن يؤجّل أكثر. عليه أن يعترف قريباً لسيلينا بكل ما أخفاه عنها، من ثروته التي تستحق الشجب إلى ارتباط اسمه الفظيع بلقب. ويبقى أن ينتظر ليرى أيّ من الخبرين سيزعجها أكثر.

وفيما كان لا يزال يحاول أن يتطرّق إلى الموضوع، باغتته الأحداث. فقد دخلت سيلينا إلى مكتبه في أحد الأيام بحثاً عنه: «ليو، هل أنت هنا؟».

دفعت الباب لتفتحه أكثر. لم تجد أثراً لليو لكنها استطاعت أن تسمع صوته آتياً من الممر الخلفي، فدخلت إلى الغرفة لتنتظره. عندئذ، لفت نظرها شيء ما. رأت العديد من الصور على المكتب، فدفعتها حشريتها إلى التقدّم والنظر إليها. ما رأته جعلها تحبس في البدء، ثم راحت تحدق بارتباك.

إنها صور زواج، ما ذكّرها بأن ليو حضر مؤخراً زواج شقيقه

غويدو. ها هما العريس والعروس التي بدت رائعة في الثوب الأبيض المخرّم، فيما بدا وجه العريس خطراً وفاتناً. وإلى جانبهما، وقف ليو، وقد تأنق كما لم تره من قبل. يا لها من أناقة. إنها ثياب مكلفة، ومع قبعة على رأسه! وماذا في ذلك؟ جميع الناس يتأنقون في الأعراس.

لكن خلفية الصورة لا يمكن تجاهلها. ثريات، صور قديمة، مرايا ذات أطر مذهّبة. كانت الثياب ملائمة بامتياز، وهذا ما لا تفعله الثياب المستأجرة. كما تبدو على هؤلاء الأشخاص الثقة الرهيبة التي تترافق مع المال والمركز الرفيع.

شعور غريب، أشبه بالرعب، بدأ يسيطر على معدتها، ويهدّد باكتساحها.

ـ لقد وصلت للتو.

كان ليو واقفاً عند العتبة، يبتسم لها بطريقة يمكن أن تجعلها تنسى أي شيء آخر. قال لها وهو يتقدم ليأخذ الصور: «دعيني أعرّفك إلى عائلتي. هذا أخي غويدو ودولسي. هذان الشخصان التائهان هنا هما والدها وشقيقها، وإن لم أرهما مجدداً فهذا أفضل. وهذا قريبي ماركو وخطيبته هاريت. وهذا الرجل عمي فرانشيسكو وزوجته ليزا».

ـ ما هذا المكان خلفكم جميعاً؟ هل استأجرتم قاعة البلدية أو شيئاً من هذا القبيل؟

فقال بنبرة متقطعة: «لا.. إنه منزل عمي».

ـ هذا؟ أيعيش هناك؟ إنه أشبه بالقصر.

أصبحت نبرة ليو أكثر تقطعاً: «أفترض.. أن هذا هو ما عليه. في الواقع».

ـ ماذا تعني؟

ـ يُدعى قصر كالفاني ويقع على القناة الكبرى في البندقية.

ـ عمك يعيش في قصر؟ هل هو من الأسرة المالكة؟

ـ لا، لا، ليس إلى هذا الحد. إنه مجرد كونت.

ـ لم أسمع ما قلته. فقد غمغمت الكلمة الأخيرة.

فكرّر ليو رغماً عنه: «إنه كونت».

حدقت فيه: «أنت قريب كونت حقيقي؟».

فأكد لها ما قاله كرجل يحاول أن يجد ظروفاً مخففة لجريمة ما: «نعم، إنما من الجهة الخاطئة».

اتهمته: «لكنهم يعرفونك، أليس كذلك؟ أنت فرد من الأسرة».

تنهد وأقرّ بذلك: «أبي كان شقيق العم فرانشيسكو. ولو أنّ زواجه من أمي قانوني، لكنت... حسناً... الوريث».

عندئذ، التفتت إليه وعلى وجهها نظرة رعب. لكن ليو استرضاها بقوله: «لكن الزواج لم يكن قانونياً. وبالتالي، لست الوريث. إنها مشكلة غويدو وليست مشكلتي، وهو غاضب مني لهذا السبب، وكأنّ الذنب ذنبي، فهو لا يريد هذا اللقب بقدر ما لا أرغب فيه أنا. كل ما أردته يوماً هو هذه المزرعة والحياة التي أعيشها هنا. يجب أن تصدقيني سيليا».

ـ أعطني سبباً واحداً يجعلني أصدق كلمة مما تقوله.

ـ هيا، أنا لم أكذب عليك يوماً.

ـ كما لم تخبرني الحقيقة يوماً.

ـ حسناً، هل أخبرتني قصة حياتك كلها منذ البدء؟

ـ نعم.

لقد نالت منه في هذه النقطة، فقرّر أن يعدّل أسلوبه، فقال: «أنت لا تتصرفين بشكل منطقي. لو كنت فقيراً، فكيف كنت لأتعرّف إلى بارتون وأذهب لزيارته؟».

ـ لقد أخبرتني أنك بعته بعض الجياد. كما يمكنك أن تشتري تذكرة سفر بسعر زهيد في هذه الأيام. وثمة شيء آخر.. هذا المنزل،

هؤلاء الناس، وهذه الأرض... عندما تكلمت عن المكان، ظننت أنك تستأجر قطعة أرض صغيرة في مكان ناءٍ، لكنك تملك كل هذا، أليس كذلك؟

ـ لم أدّع يوماً خلاف ذلك.

ـ وكم تملك؟ أنت المالك، أليس كذلك؟ ليس هنا وحسب، بل في القرية ونصف المسافة إلى فلورنسا أيضاً، على حدّ علمي.

فاعترف بيوس: «بل أكثر من ذلك، في الواقع».

ـ يمكنك أن تشتري بارتون، أليس كذلك؟

هزّ كتفيه باستسلام: «لا أعلم، على الأرجح».

ـ ظننت أنك مجرد فتى من الريف... تركتني أظن ذلك. لكنك ملك من ملوك المال.

ـ أنا فتى ريفي.

ـ أنت ملك ريفي، هذا ما أنت عليه.

بدت شاحبة من شدّة صدمتها.

ـ ليو، كن صادقاً معي لأول مرة منذ تعارفنا. أنت بالغ الثراء أليس كذلك؟

ـ تباً سيلينا، هل ستتزوجيني من أجل مالي وحسب؟

ـ لن أتزوجك على الإطلاق، لقد توهّمت...

ـ لم أتقصّد ذلك، وأنت تعرفين هذا.

ـ كل ما قلته لك، عن أصحاب الملايين وعن أنهم ليسوا أشخاصاً حقيقيين...

ـ حسناً، تعلمين الآن أنك كنت مخطئة.

ـ بالطبع أعلم! أظنك أثبت أني كنت محقة في ما يتعلق بالأسوأ. ما كنت لأعتقد أن بإمكانك أن تفعل هذا بي!

قال مناشداً فضاء الغرفة: «ماذا فعلت؟ هلّا قلتم لي ماذا

فعلت؟».

ـ ادّعيت أنك شيء، في حين أنك شيء آخر.

فصاح بصوت عالٍ: «بالطبع فعلت. ما كنت لأخاطر بفقدانك. أتظنين أني لا أعلم؟ بالطبع، أعلم. ما إن التقينا حتى عرفت أنك امرأة غير منطقية، غريبة الأطوار، وتفتقرين إلى الحسّ السليم. لم أشأ أن أخيفك فترحلي؛ لذا، لعبت اللعبة بحسب قواعدك وشروطك. حتى إني لم أتمكّن من أن أخبرك أني قمت...».

توقّف عن الكلام وقد وصل إلى حافة الهاوية.

ـ تخبرني أنك قمت بماذا؟

ـ نسيت.

لكن، عندما التقت عيونهما أدرك أنّ من الأسهل أن يُعلّق كالخروف المعدّ للسلخ.

ـ حسناً، الشاحنة، ومقطورة الجياد... مني.

ـ أنت... اشتريت الشاحنة... ومقطورة الجياد؟

ـ وجيبرز... سيلينا، كان خبراء شركة التأمين ليسخروا منك. كنت تعلمين ذلك. إنها الطريقة الوحيدة لتتمكّني من السفر مجدداً. أملت ألّا تكتشفي ذلك، أو على الأقل ألّا تغضبي مني كثيراً إذا ما عرفته.

راح يتأمّل وجهها، وهو بالكاد يجرؤ على تصديق ما يراه.

ـ لم... تضحكين؟

قهقهت: «أتعني... أنك كنت المعجزة؟ وليس بارتون؟».

ـ نعم، أنا وليس بارتون.

ـ لا عجب في أنك بدوت غاضباً للغاية عندما قلت ذلك.

فاعترف ليو: «كنت لأقتله. أردت أن أخبرك الحقيقة لكني لم أستطع، لأني علمت أنك لن ترغبي في أن تدينني لي. لذا، فكّرت في

طريقة أخرى. يمكننا أن نتزوّج، فتصبح هذه الأشياء هدية زفافنا، وتعود الأمور إلى نصابها».

حلقت فيه: «أنت جاد، أليس كذلك؟».

ـ حسناً، بحسب رأيي، إذا ما تزوجتني، فكل هذا المال المثير للاشمئزاز سيصبح لك. عندئذ، ستضطرين للسكوت عنه.

فكّرت في كلامه ثم قالت: «حسناً، اتفقنا».

حينذاك، لم تقل له إنها تحبه. قالتها لاحقاً تلك الليلة بعد أن عانقها، مطلقاً العنان لمشاعره الجامحة، وبعد أن تركها لتخلد إلى النوم. ولم يسمع همسها وكلماتها سوى وسادتها التي أخفت السرّ على غرارها.

وفي أمسية أخرى، أحضر طبقاً من الفواكه وجلسا يأكلان ويتحدّثان. وسألته: «كيف حصل أنّ عائلتك تملك أراضٍ هنا؟ إذا كنتم من نبلاء البندقية، فماذا تفعلون في توسكانا؟».

ـ كيف يمكنك أن تسألي؟ الكل يعرف أنّ الأرستقراطيين الملاعين يصادرون الأراضي أينما استطاعوا. وبهذه الطريقة، نبقى مسيطرين على رقاب الفقراء.

ـ آه، أنت مضحك للغاية! ماذا تفعلون هنا؟

ـ جدي، الكونت أنجلو، وقع في حب امرأة من توسكانا، تدعى ماريا ريتوتشي. وهذا...

وأشار إلى الوادي مضيفاً: «... كان مهرها، بما أنّ عليه أن يورث ملكيته في البندقية لابنه البكر ووريثه... وهو عمي فرانشيسكو. أما الأراضي هنا فاستخدمت لتأمين إرث لأخوي فرانشيسكو الصغيرين، برتراندو وسيلفيو. أخذ سيلفيو نصيبه نقداً وتزوّج من ابنة مصرفي في روما. ابنهما هو ماركو، لكنك لن تلتقيه في الأسبوع القادم لأنّ مشكلة وقعت بينه وبين خطيبته الإنكليزية،

هاريت. لقد عادت إلى إنكلترا فتبعها إلى هناك، ليحاول استرضاءها. وأرجو أن يعيدها ليحضرا معاً زفافنا».

داعب وجهها، محاولاً أن يلهيها بفكرة زواجهما. تقبّلت مداعبته وعانقته بحماس، لكنه لم يتمكّن من إلهائها، إذ أصرّت: «ومن ثم؟».

ـ أحب برتراندو العيش في الريف، فأتى إلى هنا وتزوّج من أرملة تدعى أليسا، التي أصبحت والدتي. وقد توفيت بعد ولادتي بفترة قصيرة، فتزوّج مجدداً من دونا، والدة غويدو. لكن تبيّن لاحقاً أنّ والدي لم يسجل زواجها الأول في الدوائر الرسمية المختصة لأن أمي كانت لا تزال متزوّجة من زوجها الأول. وبالتالي، لم أكن أنا من حصل على اللقب وإنما أخي، لأن الأوان على تصحيح وضع زواجها من والدي قد فات. وتقايضنا أنا وغويدو الإرث نوعاً ما. ولا يمكن أن أقول لك كم يسرّني أنّنا فعلنا. وإلّا، فأنا وأنت...

ـ لا...

قالت هذا كما توقّع، ثم أضافت: «ما كنت لأتزوجك لو كنت تحمل لقباً، فهذا مخالف لمبادئي، وفضلاً عن ذلك... على أيّ حال، لا يهم. لكن عائلتك ما كانت لتتقبّلني ككونتيسة».

ـ أنت لا تعرفين شيئاً عنهم. إنسي الأفكار المسبقة التي تحملينها في رأسك. نحن لا نأكل في أطباق من ذهب...

ـ يا للعار! كنت أتشوّق لذلك.

ـ هلّا صمتت وتركتني أكمل حديثي؟ ولا تنظري إليّ بهذه الطريقة وإلّا نسيت ما سأقوله.

ـ حسناً، ثمة أمور مثيرة للاهتمام يمكننا أن نقوم بها بدلاً من...

فقال وهو يمسك بأصابعها التي حامت على وجهه: «عندما أنهي حديثي، عائلتي ليست كما تظنين. كل ما سيهمهم هو أننا نحب بعضنا البعض. لقد تزوّج غويدو ودولسي مؤخراً بعد قصة حب جمعتهما،

وكذلك فعل عمي فرانشيسكو الذي انتظر أربعين عاماً حتى وافقت المرأة التي يحبها على الزواج به، ورفض الزواج من امرأة أخرى. كان لديها بعض الأفكار الغريبة، وكان هو رجلاً صبوراً، لكني لست مثله. وإذا خطر لك أني سأنتظر أربعين عاماً لتدركي ما عليك فعله، فأنت مجنونة. والآن، كنت تتحدثين عن أمور أكثر إثارة للاهتمام...».

٩ ـ لن يفهمني!

حاولت سيلينا أن تأخذ الأمور ببساطة، لكن فكرة لقاء أسرة ليو جعلتها تشعر بالتوتر ولم تستطع أن تسترخي. لقد قال إن رأسها مليء بالأفكار المسبقة، وهذا صحيح جزئياً. كان خوفها كله مركّزاً على فكرة الإتيان بتصرف أو النطق بكلمة قد تحرج ليو وتجعلهم يرمقونها بنظرات جليدية. إنها تفضّل أن تركب ثوراً على أن تخاطر بأن تبدو حمقاء أمامهم.

وقبل الموعد بأيام قليلة، تغيّر المنزل رأساً على عقب. فقد بدّل ليو وسيلينا غرفتيهما، وانسحبا إلى غرفتين أصغر حجماً في الجهة الخلفية من المنزل، لكي يتمكّن عمه وزوجته من الحصول على أفضل غرفة، فيما ينزل غويدو ودولسي في الغرفة المجاورة.

وراحت سيلينا تحدّق مدهوشة إلى جينا وهي تحضر المنزل للاحتفال، بمساعدة خادمتين وطاهٍ وفتاتين إضافيتين من القرية. كما أثار أعصابها أن يقوم بخدمتها عدد من الخدم.

قال ليو: «حسناً، أنت سيدة المنزل الآن، يمكنك أن تصرفي العديد منهم. اجعلي البيت بيتك فعلياً».

فسألته محبطة: «أحقاً؟».

وكانت عينا ليو مليئتين بمرح شرير وهو يقترح: «كما يمكنك أن تتولي مهام الطبخ».

ـ وهل تذوّقت يوماً طهوي؟

ـ أكلت منذ بضعة أيام سندويشاً أعددته، وما زلت أستيقظ ليلاً بسببه. دعهم يقومون بعملهم يا عزيزتي، واهتمي أنت بعملك، وهو الجياد.

كانت قد بدأت فعلياً بإدارة هذه الناحية من الأعمال، فالأمور أسهل مع الجياد إذ أنك تعلم ما هو متوقع منك. عملها هذا جعلها تفكر في أليوت، فتملكها شعور بالحنين إلى الوطن. كان أليوت صديقها الوفي الذي عاش معها في ظروفها الصعبة، والذي قد لا تراه مجدداً.

بعد نوبة الحنين الأولى، وجدت أنّ هذا الشعور قد يباغت المرء في أيّ لحظة ومن دون سابق إنذار. فخامة المنزل المطلقة بعد أن انتهت جينا من تغييره، تركت في نفسها الأثر نفسه، إذ جعلتها تفكر في شاحنتها الصغيرة التي تجرّ خلفها مقطورة، وفي أليوت وفي نفسها وهما يطاردان الآفاق البعيدة مع مال بالكاد يكفي ليصلا إلى المحطة التالية، ثم يتكلان على بعضهما البعض ليربحا بعض المال للمرحلة التالية. ثمة آفاق بعيدة هنا، هذا ما خطر لها وهي تتأمل تلال توسكانا، لكنها بدت لها الآن خالية من المتعة بعد أن عرفت أنها ملك ليو، وبالتالي ملكها، فما من ألغاز وأسرار في أفق تملكه، وما من إثارة أيضاً. لكنها دفعت هذه الأفكار جانباً. كانت تعلم أن هذه الزيارة مهمة لليو. ومهما قال ليتقمص من خلفيته الأرستقراطية، فهؤلاء الأشخاص هم العائلة التي يحب، وهي تشك في أنه يشاركهم قيمهم أكثر مما يدرك. هذه الفكرة جعلته يبدو بعيداً بعض الشيء.

مع اقتراب اليوم المنشود، راحت معنوياتها تضعف وازداد ارتباكها بحيث إنها لم تبدِ أي معارضة حين اقترح عليها ليو أن تشتري بعض الفساتين. اختارت أثواباً غير ملفتة قدر الإمكان لأنها لم تعد واثقة من نفسها، ولم تشأ أن تلفت الأنظار إليها.

قرّر الكونت فرانشيسكو كالفاني أن يقطع المسافة من البندقية إلى المزرعة في سيارته الليموزين الخاصة، لأنه شعر أنها ستكون مريحة أكثر لحبيبته ليزا التي لا تحب السفر في القطار. وسافر غويدو ودولسي في سيارتهما الرياضية الأنيقة. توقفا في فلورنسا لتناول الغداء، فوصلا إلى بيللا بوديتا في وقت متأخر من بعد الظهر. لقد انطلقا قبل الكونت ووصلا إلى مقصدهما قبله. قال غويدو وهو يصافح سيلينا: «لم نعد قادرين على الانتظار لنلقاك».

أحبّته على الفور، لم يكن يشبه أخاه، لكن عينيه تلمعان بالمرح نفسه. ولعل الوميض في عينيّ ليو أكثر دفئاً فيما هو أكثر عبثاً في عينيّ غويدو.

كانت دولسي نحيفة بقدر سيلينا نفسها، لكنها تتميّز بشعر طويل أشقر متموّج، حسدتها عليه سيلينا في سرّها. احتضنتها المرأة، وقالت بشوق كم يسرّها أن يصبح لديها أخت جديدة قريباً. وبدأت سيلينا تسترخي...

وبعد دقائق قليلة، اجتمعوا في الخارج لاستقبال الكونت والكونتيسة كالفاني. انزلقت السيارة اللمّاعة السوداء حتى توقّفت تماماً، ثم خرج منها السائق وعمد إلى فتح أحد أبوابها. ترجّلت منها امرأة صغيرة البنية، ذات وجه نحيل وعينين نحيفتين. ساور سيلينا شعور غريب بأنها كانت متوترة للغاية وهي تتأمل ما حولها.

وفكرت في أنها تنظر إليهم بازدراء لأنها وجدت نفسها في مزرعة، وهي التي اعتادت أن تعيش في قصر... ثم رأت الكونت يترجّل من جهته ويبتسم لزوجته التي بادلته الابتسام ووضعت يدها على ذراعه. دخلا المنزل معاً وتمّ التعارف.

كان الكونت كالفاني يتمتع بسحر العائلة الموروث. صافح سيلينا وكأنها ابنة طال غيابها، وراح يحدّثها بإنكليزية ممتازة. ابتسمت ليزا

لها وصافحتها، ثم ألقت خطاب ترحيب قصيراً ورسمياً، توجب ترجمته إلى الإنكليزية. شكرتها سيلينا بتعابير متكلّفة أيضاً، تعابير ترجمها الكونت إلى الإيطالية.

وبصفتها سيدة المنزل، رافقت سيلينا ليزا إلى غرفتها، وشكرت دولسي التي رافقتهما وترجمت لهما. وأخيراً، فرّت شاكرة الرب على خلاصها الرحيم، وتملّكها شعور رهيب بأن ردّ فعل الكونتيسة مماثل لردّ فعلها.

بدا ثوبها مزرياً إلى جانب أناقة الكونتيسة الهادئة وجمال دولسي المتوهّج. وعندما سحبتها جينا إلى غرفة الطعام لتلقي نظرة على الطاولة الأنيقة، رغبت في أن تختفي عن الأنظار لاقتناعها بأن جينا تعرف أنّ العشاء الأنيق سرّ ولغز بالنسبة إليها، وأنها تستخف بها لهذا السبب. قالت بيأس: «عظيم، الطاولة تبدو رائعة يا جينا».

ـ الطعام جاهز سيدتي.

ـ في هذه الحالة... أفترض أن عليّ أن أدعوهم للدخول.

قامت بذلك عبر إعلام ليو الذي أعلن الأمر بنفسه. علمت أنّ عليها أن تقوم بذلك بنفسها، لكنها تفضّل أن تختطي ثوراً على أن تقف أمام هذا الجمع وتدعوهم إلى غرفة طعامها. وبدأت تتساءل عن موعد الرحلات إلى تكساس.

تحسّنت الأمور بعض الشيء حين وجدت نفسها تتحدّث إلى دولسي. تبادلت المرأتان القصص عن «الحياة قبل لقاء أحد أفراد أسرة كالفاني»، على حدّ تعبير دولسي، التي أثارتها خلقية سيلينا. وقالت بتوق: «طالما أحببت أفلام الغرب الأميركي. أكنت تقومين بأعمال الغرب الحقيقية فعلاً؟ كاستخدام الحبال وامتطاء الجياد وما شابه؟».

ـ أنا أمتطي الجياد، لكنني لا أستخدم الحبال... إلّا أنني أستطيع ذلك. فقد علّمني أحد الشبان، وقال إني أجيد ذلك.

ـ هل ستقدّمين عرضاً بالحبال غداً في غروستو؟

هزّت سيلينا رأسها وردّت: «النساء لا يقدّمن عروضاً بالحبال في الروديو، بل يشاركن في سباق البراميل».

كانت عينا دولسي تلمعان وهي تقول: «أتظنين أنّ منظّمي الروديو في غروستو يعلمون ذلك؟».

كشرت سيلينا وقالت بتقدير: «أنت خطيرة».

فأومأت دولسي برأسها.

ومن الجهة الأخرى من الطاولة، راح غويدو وليو يراقبان شريكتيهما برضا. وعلّق غيدو: «نحن نفعل ذلك دوماً».

فسأله أخوه: «ماذا نفعل؟».

ـ يقول العم فرانشيسكو إن أفراد أسرة كالفاني يختارون الأفضل دوماً: أفضل طعام، أفضل شراب، وأفضل النساء. لقد أحسنّا الاختيار، يا أخي، كلانا.

كانت الوجبة رائعة. هنّأ الكونت طاهي ليو وأصبح الجو ممتازاً. واستمرّ هذا الجو حتى أثير موضوع الزفاف، فأعلن الكونت على الفور أنه سيُعقد بالطبع في كاتدرائية القديس مارك في البندقية.

قال ليو: «رأينا أنا وسيلينا أن كنيسة الأبرشية في مورنزا تناسبنا».

ـ الأبرشية...؟

بدا وكأن الكونت لا يجد الكلمات المناسبة. لكنه عاد وسأل باستهجان: «أحد أفراد أسرة كالفاني يتزوّج في قرية؟».

فردّ ليو بثبات: «هذا موطننا، وهذا ما نريده أنا وسيلينا».

ـ لكن...

كان ليجادل أكثر، لكن الكونتيسة وضعت يدها على ذراعه وقالت شيئاً لم تفهم سيلينا منه سوى اسمها.

قال يسترضيها: «حسناً، حسناً، لن أضيف أكثر».

وغطى يد زوجته براحته وأجابها باللغة نفسها التي استخدمتها.

لا يحتاج المرء لأن يكون نابغة ليعرف ما قالاه، هذا ما رأته سيلينا. فالكونتيسة لا ترى ضرورة لهذا الهرج والمرج حول الموضوع. وكاتدرائية القديس مارك أهم وأفخم من أن تتزوج فيها سيلينا غابتس، وقد وافقها الكونت الرأي.

ولحسن الحظ، رغب الجميع في الخلود إلى النوم باكراً، استعداداً لمسرات اليوم التالي. وقد اعتادت سيلينا أن تنام بسهولة، لكنها بقيت الليلة مستلقية في فراشها لساعات وقد جفاها النوم، تتساءل عما تفعله هنا.

عند الصباح، غادروا المنزل باكراً وتوجّهوا إلى غروستو، لتتمركز العائلة في غرفة الفندق التي حجزها لهم ليو، والتي تشرف على الاستعراض. أما ليو وسيلينا، فتوجّها مباشرة إلى نقطة انطلاق الموكب. كانا اليوم مجهّزين بأفضل ما وجداه عند داليا، فيصا رعاة بقر مقفلان حتى العنق، حذاءان ملوّنان وحزامان بإبزيم فضي. وعندما ثبّت ليو القبعة الطويلة بشكل زاوية على رأسه، واعتمرت سيلينا قبعتها بأناقة، أصبحا جاهزين للمشاركة في الاستعراض.

بعد الاستعراض، انتقل الجميع إلى حقل مجاور حيث ستجرى المسابقات بعد الظهر. وأولى المسابقات، كانت ركوب الجياد غير المروّضة، وقد شارك ليو فيها، وجاءت نتيجته مشرّفة وإن لم يربح. بعدئذ، وُضعت البراميل، وتعالى صوت عبر المكبّرات يخبر الحشود عن إنجازات سيلينا، ويشير إلى أنها ستقطع الجولة في أربع عشرة ثانية كحدّ أقصى.

شكّل هذا الأمر تحدّياً حقيقياً لها، إذ وُضعت البراميل بعيدة عن بعضها البعض، كما أنّ باري تفتقر إلى الخبرة والتمرين. أعطى الاثنان أفضل ما عندهما، وسجّلا أربع عشرة ثانية ونصف، لكن هذا لم يمنع

المعلّق من أن يصرخ «أربع عشرة ثانية»، فور انتهائها. وقد سلّم الجمهور السعيد بصحة كلامه.

إذا ما ظنّت سيلينا أن اليوم انتهى، فقد أخطأت، إذ إن الصدمة كانت بانتظارها لاحقاً. المسابقة التالية هي مسابقة إمساك العجل بواسطة الحبال، وقد سجّل شخص مؤذٍ وشرير اسمها للمشاركة في هذه المسابقة. وقد أقسم غويدو إنه ليس الفاعل. إلاّ أنها تمكّنت، على غرار ليو، من أن تشارك بشكل مشرّف، لم تفقد معه ماء الوجه، وانتهت فترة بعد الظهر في جو صاخب ومرح. هلّلت لها أسرة كالفاني طويلاً، باستثناء الكونتيسة التي صفقت لها، إنما بهدوء، وتركت سيلينا تتساءل عما تفكّر فيه حقاً. وخطر لها أن الكونتيسة تقول في سرّها إنها متهوّرة، لا تتصرف كسيّدة ولا يمكن تغييرها.

انتشرت في المكان عشرات المنصّات التي تبيع الأطباق والأطعمة المحلّية، فتناول الكل الطعام بمتعة بما في ذلك الكونتيسة التي أكلت بنهم واستمتاع. وشرح لها ليو: «إنها من هذه الأنحاء، ولا تتاح لها غالباً فرصة تناول الطعام التوسكاني».

وقالت لها دولسي لاحقاً فيما كانوا يشربون القهوة: «أتعلمين، أنت كما توقعت تماماً».

نظرت إليها سيلينا بدهشة: «أكنت تعلمين بشأني؟».

ـ عندما عاد ليو من تكساس، لم يكن بإمكانه أن يتكلم سوى عنك. أخبرنا كيف التقاك، وأنك رائعة وأنه فقد رقم هاتفك. كاد يُجنّ. ولو لم تأتي إلى هنا، لسافر بحثاً عنك، وأنا واثقة من ذلك.

رفعت سيلينا نظرها لتجد أن عينيّ ليو عليهما، وكان يبتسم ابتسامة عريضة محرجاً، لكن طبيعته الطيّبة مُنعته من الاعتراض على سخريتهما منه. وقال لسيلينا: «بت تعرفين الآن!».

سخرت منه: «عيا الآن، على أيّ حال، كنت أعلم. لطالما

علمت أنك لا تستطيع مقاومة سحري».

وضع يداً حنوناً حول كتفيها، وقال متأملاً: «من جهة أخرى، أنت التي جئت إلى هنا بحثاً عني».

ـ لم آتِ بحثاً عنك، بل جئت من أجل الروديو.

فقال: «حسناً، لقد انتهى الروديو الآن ويمكنك أن تعودي إلى ديارك».

لكن ذراعه اشتدّت حول كتفيها فيما كان يتكلم. وكان الآخرون يراقبونهما مبتسمين. قالت له بتحدٍّ: «سأرحل إذن».

اشتدت ذراعه: «حسناً، إرحلي».

ـ سأرحل.

ـ حسناً.

ـ حسناً.

فقال غويدو بسخط: «هيا، كفّا عن ذلك وتعانقا».

بعدئذ، سهروا حتى وقت متأخر، غير راغبين في ترك هذه المناسبة السعيدة تنتهي.

وفي الصباح التالي، تفرّقوا بعد أن تواعدوا على اللقاء قريباً، عندما يعقد ليو وسيلينا العزم على الزواج. حتى إن الكونتيسة ابتسمت وقبّلت وجنة سيلينا، ما جعلها تشعر بأنها كانت قلقة من دون داعٍ.

وقفت هي وليو، متشابكي الذراعين، حتى اختفت آخر سيارة عن الأنظار. بعدئذ، عادا مسرعين إلى عملهما.

كان موسم الحصاد قد حلّ الآن. وكان على ليو أن يهتمّ بقطاف العنب والزيتون؛ لذا لن يتسنّى لهما أن يتزوجا حتى ينهي عمله هذا. أصبحت سيلينا مأخوذة بهذا الجانب من حياتهما، فراحت تمضي ساعات طويلة على سرج جوادها تجول في الأراضي معه. كانا يعودان إلى المنزل كل مساء، مرهقين إنما راضيين وقانعين بما تُثمر به

الأراضي. وخفّ قلقها وتململها تدريجياً. ما من شيء تقلق بشأنه، ويمكن لهذه الحياة السعيدة أن تستمر إلى الأبد.

وفي صباح أحد الأيام، أتى الاتصال الهاتفي من العدم. خرجت سيلينا من غرفتها بعد أن استحمّت لتجد ليو متضايقاً.

ـ اتصل العم فرانشيسكو للتوّ، وهو يريدنا أن نترك كل شيء وأن نتوجه إلى البندقية على الفور، وفي هذه اللحظة.

ـ هل هو مجنون؟ نحن على وشك أن نبدأ بجمع غلّة العنب.

ـ هذا ما قلته له. قال إن الأمر طارئ.

ـ أتظن أنه يريد فتح موضوع الزفاف مجدداً؟

ـ أرجو ألّا يكون هذا سبب استدعائه لنا. قلت له مراراً وتكراراً إننا سنتزوج في مورنزا، وهذا قرار نهائي. إذا ما جرّنا إلى البندقية ليناقش الموضوع مجدداً، فسوف...

وراح يبحث عن كلمات يمكن لطبعه المحبّ أن يتلفّظها، ثم أضاف: «فسأقول له إنه ما كان عليه أن يفعل ذلك».

ـ إذن، ستذهب؟

ـ بل سنذهب، عليّ أن أتحدث إلى ريتزو ومن ثم سأخرج السيارة.

وتنهّد قبل أن يردف: «لمَ لم يقل لي ما حدث على الأقل؟ حسناً، كلما أبكرنا في الوصول كلما عرفنا أسرع ما حصل، وكلما تمكّنا من العودة باكراً».

سألته سيلينا مع اقترابهما من المدينة: «إذا كانت شوارع البندقية من ماء، فأين ستركن السيارة؟».

ـ ثمة ممر يمتد من البرّ الرئيسي إلى البندقية، ويمرّ فوق البحيرة الضحلة. وعند الوصول إلى البندقية، ثمة محطة تدعى بيازا لا روما، حيث يمكننا أن نترك السيارة ونستقل المركب لنقطع المسافة المتبقية.

ـ سنستقل الغندول؟

- لا، فهذه المراكب ليست كسيارات الأجرة. إنها تقوم بجولات للسياح في المدينة. سيرسل لنا عمي مركبه.

لكن، عند وصولهما كانت بانتظارهما مفاجأة، إذ وجدا غويدو هناك يرحّب بهما، وقد حضّر لهما غندولاً وليس مركباً سريعاً عادياً.

قال ليو مكشّراً: «نسيت أنك تظن نفسك سائق غندول».

وأضاف موجّهاً كلامه إلى سيلينا: «لغويدو بعض الأصدقاء من أصحاب الغندولات، فيستعير مراكبهم عندما يحلو له ذلك، وهو يرى الكدح الشريف بهذه الطريقة».

قال لها غويدو وهو يساعدها على الركوب: «تجاهليه».

حمل حقائبهما، ثم التفت إلى ليو وأشار إلى المركب بانحناءة مسرحية: «سيدي».

فقال ليو مكشّراً: «أنت تخطط لشيء ما يا أخي الصغير».

- من، أنا؟

- لا ترمقني بهذه النظرة البريئة، فأنت تبدو دوماً بريئاً عندما تقوم بعمل ما يجعل الكل يحس. أتعرف شيئاً لا أعرفه؟

مازحه غويدو: «ما أعرفه أنا ولا تعرفه يمكن أن يملأ كتاباً. لكن لا تلمني في ذلك، فهذه هي الحياة، وهذا هو القدر».

وانطلق، فتحوّل انتباه سيلينا عنهما لبعض الوقت لتركّز على أول رحلة لها في الغندول وأول زيارة لها إلى البندقية. بدا لها أنهم وصلوا سريعاً إلى القناة الكبرى، الطريق الرئيسي العريض الذي يمرّ وسط المدينة.

قال ليو، وهو يشير إلى مبنى إلى يمينهم: «هنا يعيش عمي».

كان قصر كالفاني مبنى ضخماً، زُيّنت واجهته بزخرفات حجرية أشبه بالمخرمات، وتكاد تخفي حجمه. وأدركت سيلينا أنه قصر حقيقي، فالثقة والجمال ينضحان منه على حدّ سواء. لا بد أنه كان مسكناً للوردات عظام على امتداد قرون، وعظمته لا تذعن وتنحني

لأيّ رجل. ومع أنها استطاعت أن تقدّر الجمال والثقة، لكنها شعرت في الوقت عينه بسرور عميق لأنها ليست مضطرة إلى العيش فيه.

وتعاظم إعجابها عند وصولهم إلى مرحلة الرسو حيث سارع الخدم إلى مساعدتهم، إذ بدا وكأن المنزل الضخم، الساحر، مدّ يديه ليحتضنهم أيضاً. همس ليو في أذنها: «أعلم ما تفكرين فيه، إذ يخطر لي أحياناً أني لن أخرج حياً من هنا».

جعلها كلامه تشعر بالتحسن فضحكت. إن كان شعوره مماثلاً لشعورها، فلا بأس. واتسعت عيناها دهشة عندما رأت غرفتها، إذ حتى الغرفة التي نزلت فيها في مزرعة فورتين لم تكن خيالية كهذه. وهمست لليو: «إنها كبيرة كملعب كرة مضرب، سأضيع فيها».

- لا تخافي، غرفتي في الطرف الآخر من الممر.

ورأت سيلينا ما جعلها تقفز من مكانها.

- ليو، من هذه وماذا تفعل بحقيبتي؟

فقالت دولسي التي ظهرت فجأة من خلفهما: «إنها خادمة ليزا، وقد أرسلتها لمساعدتك».

- تعنين أنها تظن أن لا فائدة مني؟

فقالت دولسي: «لا تكوني حساسة بهذا الشكل! هذا مجرد إطراء، لأنك ضيف مبجّل».

وفكّرت سيلينا في أنّ المرء يمكن أن ينظر إلى هذا الأمر بهذه الطريقة كما يمكنه أن يعتبره إهانة مبطّنة، طريقة لتقول لها الكونتيسة إنها تعرف أنه لن يكون لها خادمة خاصة بها يوماً. هذه مشكلة هؤلاء الناس، لا يعرف المرء كيف يفسّر كلامهم وتصرّفاتهم.

اعتمدت على ليو ليدعمها، لكنها أدركتْ سريعاً أنه لا يفهمها سوى جزئياً. ومهما قال عن عدم ارتياحه في هذا المكان، تبقى حقيقة أنّ هذه الأسرة أسرته، وأنه يحبها. وهو يشارك أفرادها تاريخاً وأفكاراً

لا يحتاجون للحديث عنها. كانوا يدعونه «الريفي الشديد الارتباك» بنبرة محبة، ساخرة نسبياً، لكنه واحد منهم كما لن تكون سيلينا.. كما لن تكون سيلينا أبداً!

واعتباراً من تلك اللحظة، شعرت أنّ كل شيء يحمل معنى مزدوجاً. عندما أتت الكونتيسة شخصياً إلى غرفتها ورافقتها إلى الأسفل لتناول العشاء، هل كان هذا إطراءً أم طريقتها في أن تقول لها إنها أغبى من أن تجد طريقها؟ وعندما وقف الكونت ليأخذ بيدها، وهمس مديحاً على أناقة ثوبها ثم قادها إلى الطاولة، ألم يكن يشير إلى أنها اشترت ثوبها من سوق مورنزا؟

حسناً، لن يفلحوا في تخويفها.

أخذت نفساً عميقاً وجلست في المقعد الذي اختاروه لها، إلى يمين الكونت. بعدئذ، أبلت بلاءً حسناً. كانت تخشى أن توقع إحدى كؤوس الكريستال الباهظة الثمن وتحطمها، لكن اللمسة الخفيفة والماهرة التي اكتسبتها بفضل السباقات العديدة التي خاضتها، ساعدتها. عليها أن تتعامل مع هذه الأغراض كما تتعامل مع أيّ جواد، ببراعة تتميز بالخفة لا بالقوة.

كان الطعام رائعاً، حتى إن حساسيتها المفرطة والمرضية لم تفلح في أن تحوّله إلى إهانة. وكانت قد بدأت تسترخي حين تعالت فوضى خفيفة من خارج غرفة الطعام. وفي اللحظة التالية، هبّت أسرة كالفاني كلها واقفة لترحّب برجل وامرأة دخلا إلى الغرفة.

صرخ الكونت فرحاً: «ماركو! هاريت!».

ورأت رجلاً وسيماً، أنيقاً وطويل القامة ترافقه امرأة شابّة ذات جمال كلاسيكي.

قال الكونت: «أملت أن تنضمّا إلينا».

وتقدّم بشوق ليصافحهما. وقال ماركو: «بالكاد تمكّنا من العثور

على تذكرتي سفر. لم نكن لنفوّت المناسبة العظيمة إذا ما استطعنا المساعدة. هل...؟».

فقاطعه الكونت على عجل: «لا، لا، ليس بعد. تعالا لتتعرفا إلى الفرد الجديد في أسرتنا».

التفت عينا سيلينا بعينيّ ليو عبر الطاولة، وقد بدا الارتباك والتشوّش على كليهما. المناسبة العظيمة؟

إذن، هذا ماركو! القريب الذي ذكره ليو، الشخص الذي لم يظهر يوماً مشاعره، لكنه مع ذلك سافر إلى إنكلترا، مهملاً عمله كمصرفي في روما، بغية استرجاع المرأة التي يحب. بدت تصرفاته الآن باردة ومتكلّفة، وكأن تصرّفه العاطفي الانفعالي ذاك انتهى إلى غير رجعة. لكنها لاحظت كيف تعود عيناه دوماً لتتأمّلا هاريت، وكأنه لا يستطيع أن يصدّق أنها معه.

لقد أحبّت دولسي على الفور، ووجدت نفسها الآن تحب هاريت التي جلست إلى جانبها وتبادلت معها أطراف الحديث بين اللقمة والأخرى، فيما كانت تتناول الطعام بسرعة لتدرك المرحلة التي وصلت إليها الوجبة.

قالت: «أنا سعيدة للغاية لأنكما، أنت وليو، تمكّنتما من الاجتماع. هذا ما أملناه، أنا ودولسي».

تدخّلت دولسي في الحديث: «لقد أخبرتها كم تحدّث عنها».

فأومأت هاريت: «أتذكر ذلك».

عندئذ، قال ليو: «في الواقع، وجدنا الأمر مسلياً للغاية أنتما الاثنتان».

ثم وجّه ابتسامة عريضة لهاريت وتابع: «لكنّنا سنسخر من ماركو الآن. فلا بدّ أنك تغلغلت في مسام جلده حتى جعلته يلحق بك إلى لندن ويبقى هناك لأسابيع. متى ستجعلين منه رجلاً شريفاً؟».

قالت هارييت ضاحكة: «حسناً، لا بدّ أن يحصل ذلك قريباً. سيعطيني المتجر كهدية زفاف».

ثم وجّهت الكلام إلى سيلينا: «لديّ متجر لبيع القطع الأثرية، لكن المشكلة أني فاشلة في إدارته. لذا، يحاول ماركو أن يعلّمني «الحس المالي السليم»، أي أبسط القواعد المالية».

فسألتها سيلينا بصوت مكتوم: «أثريات؟ أتعنين...؟».

والتفتت من حولها تتأمل ثريات الكريستال واللوحات الثمينة، ثم أردفت: «أتعنين... هذا النوع من الأشياء؟».

فقالت هارييت بلهفة: «نعم. هذا المكان يثير إعجابي، فهو مليء بالجمال والتاريخ. يمكنك قراءة تاريخ البندقية في هذا المنزل، الناس، المناسبات...».

لم تسمع سيلينا المزيد، فقد غمرت قلبها الكآبة وأثقلته. أملت للحظة أن تجد في هارييت نوام روحها، أملت أن تشعر مثلها وكأنها سمكة خارج المياه في هذا المحيط الثري. ولكن تبيّن لها أنها تنتمي إلى هذا المكان، كأي فرد من أفراد أسرة كالفاني. يمكنها أن تنسجم مع الأسرة بسهولة وتشكّل جزءاً منها، ما يظهر بوضوح أن سيلينا نفسها تبرز بينهم كإبهام متفرّح.

لكن، يبقى هناك دولسي، التحرّي الخاص، الفتاة العاملة التي عرفت معنى الكفاح من أجل كسب لقمة العيش.

عليها أن تتمسك بهذه الفكرة، لأنها أدركت أن ثمة أفكار لا يمكنها أن تطلع عليها ليو. فبكل بساطة، هو لن يفهمها.

وهذا أسوأ ما في الأمر!

١٠ ـ شبح القصر

شارفت الوجبة على الانتهاء، فرفعت الأطباق وقُدّمت القهوة. وخيّم السكون على الحديث، وكأن الجميع أدرك أن الوقت حان.

سأل الكونت: «هل الجميع مستعد؟ رائع. لديّ إعلان هام».

والتفت إلى ليو وسيلينا.

وفكّرت: آه، لا! سيقول إنه رتّب أمر زواجنا في كاتدرائية القديس مارك، وعلينا أن نرضخ للأمر الواقع.

وتابع فرانشيسكو: «كما تعلمون، سنذهب كلنا إلى توسكانا قريباً لحضور زواج عزيزنا ليو وعزيزتنا سيلينا. إنها مناسبة سعيدة، وقد ازدادت سعادتنا بها بفضل ما سأقوله لكم».

وصمت للحظات، وقد بدا غير واثق مما سيقوله. واسترخت سيلينا، فما سيقوله لا علاقة له بالزواج على الأقل. وأردف فرانشيسكو: «أودّ أن أتكلم عن زواج آخر الليلة. زواج ظننا... لقد بقينا مشوشين لسنوات... لكن الأمور أصبحت واضحة الآن...».

والتفت إلى غويدو وقال: «أخبرهم، إنها قصتك».

وقف غويدو بينهم خطيباً ووجّه كلامه إلى ليو: «ما يحاول العم فرانشيسكو أن يخبركم إياه هو أنّ اللغط أحاط بزواج والدتك في السنوات الماضية كلّها. لم تكن أمك متزوجة يوماً من قبل. وبالتالي، فإن زواجها من والدك قانوني ووضعك قانوني أيضاً».

وفي الصمت المشدوه، لاحظت سيلينا أن وجه ليو شحب. لكنه

تمكّن أخيراً من الضحك.

ـ مضحك جداً يا أخي الصغير. لطالما كنت بارعاً في المزاح، لكن هذه النكتة هي أفضل ما أتيت به يوماً.

قال غويدو: «ليست نكتة، فأنا أملك الإثبات. ذاك الرجل الذي تبيّن أنه لا يزال حياً، والذي يدّعي أن أليسا كانت زوجته... فرانكو فينللي، لم يتزوّج والدتك قط، إذ كان فينللي متزوجاً من قبل، في انكلترا. كان منفياً في فرقة جوّالة، وقد تزوّج امرأة إنكليزية زواجاً مدنياً. وعندما انتهت الجولة، تركها. يبدو أنه ظن أن زواجاً مدنياً إنكليزياً لا يحسب له حساب بعد عودته إلى إيطاليا».

فقال ليو بحزم: «كان محقاً. لم يكن ذاك الزواج معترفاً به هنا، في تلك الأيام».

ـ لكنه زواج قانوني. ثمة اتفاقية دولية تنصّ على أنّ الزواج القانوني والشرعي في البلد الذي عُقد فيه، هو زواج معترف به في أيّ بلد آخر من البلدان الموقّعة على الاتفاقية. إيطاليا وإنكلترا من الدول الموقّعة، وبالتالي فإن الزواج صالح وشرعي هنا. إذن كان الرجل متزوجاً في الوقت الذي يدعي فيه أنه متزوج باليسا، ما يعني أنها كانت امرأة حرّة حين تزوّجت من أبيك. وذلك يعني أيضاً أن زواج والديك قانوني. وهكذا فإن وضعك قانوني أيضاً.

سأله ليو: «ماذا تعني بأن لديك الإثبات؟ ما الذي يمكن إثباته بعد كل هذا الوقت؟».

ـ يمكن ذلك، مع قليل من البحث.

ـ وأراهن على أنك قمت بهذا البحث.

ـ بالطبع، فأنا لم أرغب يوماً في هذا كله، ولم أدّعِ ذلك أبداً. هذا كله لك.

نظر ليو من حوله نظرة شخص وقع في الفخ، وقال: «هذا غير

منطقي، عليك أن تنسى ذلك».

فصاح الكونت: «إنه القانون، ولا يمكن نسيانه أو تجاهله. أنت وريثي، وهكذا ينبغي أن تسير الأمور. لطالما كنت الابن البكر...».

عندئذ، قال ليو بحزم: «الابن البكر غير الشرعي».

ذكّره ماركو: «ليس بعد الآن».

فأمره ليو: «إبق خارج الموضوع، أيها... المصرفي!».

سكب ماركو لنفسه فنجان قهوة من دون أن يتأثر.

أصرّ ليو: «فات الأوان على تغيير أيّ شيء. أنا لا أصدّق، ولا أؤمن بهذا الذي تسميه إثباتاً. فهذا الإثبات لن يصمد أمام أيّ محامٍ...».

قال غويدو: «لقد عرضت الأمر على أكثر من محامٍ، كما عرضت عليهم البيانات المصدّقة والمسجّلة في السجلات الإنكليزية».

تمتمَ ليو: «وما رأي فينللي بذلك؟ اجلبه إلى هنا ليواجهني!».

ـ توفّي فينللي العام الماضي، وليس لديه أسرة، كما أنّ لا أحد في محيطه على علم بهذا الزواج الإنكليزي.

ـ لا بدّ من وجود شخص ما.

ـ هناك السجلات الخطية وحسب.

استشاط ليو غضباً: «أراهن على أنك فكرت في كافة التفاصيل».

ـ بالطبع فعلت.

سخر ليو منه: «أنت تتمتع بهذا، أليس كذلك؟».

ـ بكل لحظة منه.

ـ هذا يناسبك أنت، لكن ماذا عن...؟

والتفت ليو إلى سيلينا التي بدت شاحبة وذاهلة، وهي تراقبه متضرعة، ثم أتبى كلامه بهدوء بعد أن أمسك بيدها: «ماذا عنّا نحن؟».

ونهضت لتقف إلى جانبه. رقبتهما معاً جنباً إلى جنب أثارت انتباه

الآخرين إلى أن ثمّة خطأ ما. هذا ليس الإعلان السعيد الذي أراده الكونت فرانشيسكو.

أخذ الكونت يتململ وينفخ، ثم قال: «حسناً، عليّ أن أقول إني توقّعت رد فعل أفضل من هذا. توقّعت أن يكون هذا اليوم يوماً عظيماً».

فردّ ليو بحزم: «انقلاب حياتك رأساً على عقب ليس سبباً ليكون اليوم عظيماً. والآن، أرجو أن تعذرونا، أنا وسيلينا سنصعد إلى الأعلى، فلديّ ما أقوله لها».

خرجا من الغرفة، ويدها في يده، ثم هرولا حتى غابا عن أنظار الآخرين، ولم يتوقفا حتى وصلا إلى غرفته.

ـ ليو، لا يمكنهم أن يفعلوا ذلك بنا.

ـ لا تقلقي، فلن أدعهم يفعلون.

لكنها لاحظت التردّد في صوته ما جعلها ترتجف. لطالما عرفته كشخص خالٍ من الهموم في مواجهة أي تحدّ، وكأن لا شيء يخيفه. لكنها شعرت بأنه ليس واثقاً من قدرته على التغلّب على ما يواجهه الآن.

قالت بصوت أجش: «أتعلم! ثمة أشخاص يحلمون بذلك، وسيقولون إننا غير منطقيين. ها قد أصبحت فجأة رجلاً مهماً، صاحب ميراث عظيم، فلِمَ لسنا سعيدين؟».

ـ إنه كابوس. أنا، كونت؟ فتى الريف المرتبك هو كل ما أردته يوماً. أترغبين في أن تصبحي كونتيسة؟

ـ أتمزح؟ أفضل أن أكون قطعة زبدة.

وتشبثا ببعضهما البعض، بحثاً عن الطمأنينة، لكنهما كانا يعلمان أنهما يحاربان شيئاً قد يخنقهما.

سمعا طرقاً على الباب، وأطلّت دولسي برأسها. فقالت لليو:

«يريد عمك أن يراك في مكتبه، فلديه أوراق يودّ أن يريك إياها».

ـ تباً!

فقالت بلهجة متعاطفة: «من الأفضل أن تنتهي من هذه المسألة».

انتظر ليو حتى عمّ السكون في المنزل قبل أن يتسلّل من غرفته. تباً للتقاليد ولآداب التصرّف، عليه أن يرى سيلينا الليلة.

لكن حين فتح بابها، وجد سريرها خالياً ولم يجد أثراً لها. أضاء النور ليتأكد ثم أطفأه مجدداً وتوجّه إلى النافذة. كانت القناة الكبرى تمتد أمام ناظريه، صامتة، غامضة، وكئيبة في جمالها. أكثر من رجل قد يحسده، هو وريث كل هذا، لكن أراضيه الواسعة هي التي تشده إليها وتناديه. وكانت غرائزه تشير إليه بأن مشكلة أخرى تنتظره، مشكلة ستوقع الرهبة في نفسه.

شيء ما لفت نظره وانحنى ليمعن النظر أكثر إلى حيث يشكّل القصر زاوية مستقيمة. استطاع أن يرى عبر النوافذ العريضة شكلاً أبيض يجول في الغرف الواسعة.

وكأيّ قصر يحترم نفسه، لهذا القصر أشباحه، لكنها لا تشبه الشكل الذي رآه. غادر ليو الغرفة على عجل وسارع إلى الأسفل، قاطعاً المبنى، عبر الأرضيات الرخامية التي رددت صدى وقع خطواته الخفيفة.

وجد الشبح في قاعة الرقص، يسير بائساً قرب النوافذ العريضة التي تمتد من الأرض إلى السقف. كانت الزخرفة الذهبية تشعّ من حولهما، فيما تدلّت من السقف ثريات ضخمة من الكريستال، صامتة في الظلام.

همس اسمها بنعومة فالتفتت تنظر إليه. حتى في هذا الضوء الخافت، استطاع أن يرى وجهها بما يكفي ليعلم أنه لا يزال مضطرباً شديد الاضطراب. وفي اللحظة التالية، ارتميا في أحضان بعضهما

البعض.

صرخت: «لا يمكنني القيام بذلك، لا يمكنني ذلك وحسب».

طمأنها وهو يمسّد على شعرها، فيما قلبه مليء بالخوف: «بل يمكنك ذلك. يمكنك أن تفعلي أيّ شيء تصممين عليه. أنا أعلم ذلك وإن كنت أنت لا تعلمين».

ـ بالطبع، يمكنني أن أفعل كل ما يتطلّب جرأة وعناداً، لكن هذا... قد يحطّمني ويسحقني.

هذا ما كان يخشاه، لكنه لم يكن مستعداً للاستسلام بعد.

ـ لن نبقى عالقين هنا دوماً...

ـ لكننا سنفعل في النهاية.

وابتعدت عنه ثم راحت تذرع الغرفة جيئة وذهاباً قبل أن تضيف: «انظر إلى هذه الغرفة. دولسي ستشعر وكأنها في منزلها هنا لأنها ترعرعت في مكان مماثل، وهاريت ستكون على ما يرام لأنه مليء بالقطع الأثرية. لكن أنا؟ لقد أمضيت الوقت كله وأنا أرجو ألّا أصطدم بشيء ما».

ناشدها: «سيختلف الأمر مع مرور الوقت، ستتغيرين...».

فردّت بحدة: «ربما لا أريد أن أتغيّر، لعلي لا أرى خطباً في ما أنا عليه».

ـ لم أقل...

ـ لا، ولن تفعل أبداً. لكن الحقيقة هي الحقيقة، إن نطق بها أحد أم لم يفعل. ليو، نحن لا ننتمي إلى عالمين مختلفين فحسب، بل إلى كوكبين مختلفين، وكونين مختلفين. وأنت تعرف ذلك.

ـ لقد تغلّبنا على هذه الفروقات من قبل.

ـ نعم، بسبب المزرعة، بسبب الأرض والحيوانات، وكل الأشياء التي نحبها كلانا. لم يكن المكان الذي جئنا منه مهماً، لأننا كنّا

متوجّهين في الاتجاه نفسه. لكن الآن...

ونظرت من حولها بيأس.

ـ لن يتوجّب علينا أن نمضي الكثير من الوقت هنا... وستبقى لدينا المزرعة...

ـ أحقاً؟ كان من المفترض أن يصبح هذا إرث غويدو وقد فقده الآن لصالحك. ألن تعطيه ما لديك في المقابل؟

هذه الفكرة راودته وعذّبت ضميره.

ـ غويدو لا يهتم بالزراعة وتربية الحيوانات. يمكنني أن أعطيه حصته نقداً. وسأبيع بعض القطع الأثرية من هذا القصر إذا اضطرّ الأمر. كل القطع إذ ما احتجت لذلك.

ـ ونعيش في المزرعة ونترك قصر أجدادك فارغاً؟

وشدّت شعرها القصير بقوة قبل أن تردف: «لو كان في مكان آخر، لأمكنك أن تنتقل ببساطة إلى القصر وتشتري بعض الأراضي الزراعية من حوله، لكن ماذا تستطيع أن تفعل في البندقية؟».

ـ حبيبتي، أرجوك...

فقالت بسرعة: «لا تدعُني هكذا».

ـ لمَ أصبحتِ هكذا فجأة... والآن؟

ـ لأن الأمور كلها تغيّرت... الآن.

ـ إذن، فجأة لم أعد أستطيع أن أقول لك إني أحبك أكثر من الحياة؟ لا أستطيع أن أقول إني لا أريد هذا أيضاً، لكنه سيكون محتملاً إذا ما كنت معي؟

ـ توقّف!

وابتعدت واضعة يديها على أذنيها لئلا تسمع المزيد.

سألها بصوت أصبح قاسياً فجأة: «لمَ عليّ ألّا أقول إن حبك هو كل شيء بالنسبة إليّ؟ لأنك لا تستطيعين أن تقولي الكلام نفسه؟».

وفي الصمت الطويل الذي تلا كلامه، شعر ليو أن قلبه يكاد يتوقف عن الخفقان. وأخيراً، همست: «لا أعلم، آه، ليو، سامحني، لكني لا أعلم. أنا... أنا أحبك...».

ـ أحقاً تحبينني؟

سألها هذا السؤال بصوت قاسٍ لم تسمعه منه من قبل.

ـ نعم، أحبك، أحبك، أحبك...

ومع كل كلمة تكررها، كان اضطرابها يزداد. وتابعت: «أرجوك، حاول أن تفهم...».

ـ أفهم هذا... أفهم أنك تحبينني حباً مشروطاً. وفجأة، عندما تصبح الأمور صعبة وشاقة، لا يعود الحب كافياً.

وضحك ضحكة مرّة: «يا لسخرية القدر! إذا ما فقدت كل قرش أملكه، فيمكنني أن أعتمد على حبك. وإذا جبت في الشوارع وأنا أتضور جوعاً، فساكون واثقاً من أنك ستجوعين معي، ولن تتذمري!».

ـ نعم... نعم...

ـ وإذا ما اضطررت ليبع قميصي فستفعلين مثلي. سنحارب العالم بأسره معاً وسنكون سعيدين. لكن، إن كنت ثرياً، فهذا يعني المتاعب.

صرخت: «الأمر ليس على هذا النحو».

ـ أنا الرجل نفسه، سواء أكنت ثرياً أم فقيراً، لكنك لا تستطيعين أن تحبيني إلّا إذا عشنا الحياة التي تريدينها. لكني أريد تلك الحياة أيضاً، ولا أريد كل هذا.

ـ إذن، دع كل هذا. قل لهم إنك لا تريد اللقب. لنعد إلى المزرعة ونعيش بسعادة.

ـ أنتِ لا تفهمين، فالأمور لا تتم بهذه الطريقة. أنا أتحمّل الآن مسؤولية كل هذا، تجاه عائلتي وتجاه الأشخاص الذين يعملون لحسابنا ويعتمدون علينا. لا يمكنني أن أدير ظهري لكل ذلك.

وأمسك بها من كتفيها بلطف ثم نظر إلى وجهها، مضيفاً: «عزيزتي، إنها معركة، إنما معركة مختلفة. لِمَ لا تساندينني في هذه، كما كنت لتفعلي في أيّ معركة أخرى؟».

ـ لأنّ كل واحد منا سيحارب عدوّاً مختلفاً، وينتهي بنا الأمر إلى مواجهة بعضنا البعض. وهذا ما نفعله الآن، إلى حدٍّ ما.

ـ إنه مجرد خلاف بسيط...

ـ لكنك أطلقت الرصاصة الأولى في الحرب منذ لحظات، ألم تلاحظ ذلك؟ قلت «أنتِ لا تفهمين»، وأنت محق. ومع مرور الأيام، ستزداد الأمور التي لا أفهمها، على عكسك. وشيئاً فشيئاً، لن تفهم الأشياء المهمة بالنسبة إليّ. وفي النهاية، سنقول لبعضنا البعض «أنت لا تفهم، وأنت لا تفهمين» عشرات المرات في اليوم.

صمتا وقد تملّكهما الخوف، وكلاهما يرى الشقوق في الأرض تحت أقدامهما... تلك الشقوق التي ستتحوّل قريباً إلى هوّة لا يمكن للحب أن يردمها. لكن ليس الآن.. لا يمكنها مواجهة ذلك حالياً.

فقال ليو على عجل: «دعينا لا نناقش الموضوع أكثر هذه الليلة. فكلانا مصدوم، لندع الأمر إلى أن نهدأ».

ـ نعم، لنفعل ذلك. سنتحدث عندما نعود إلى المنزل.

هذا القرار أبعد شبح المشاكل بعض الشيء. وفي هذه الأثناء، يمكنهما أن يختبئا مما يحصل. رافقها إلى باب غرفتها حيث لامس خدّها بنعومة، وقال: «حاولي أن تنامي، فسنحتاج إلى قوتنا كلها».

وما إن أقفلت الباب حتى ابتعد... لم يحاول الدخول إلى غرفتها كما لم تقل له «ابق معي».

أمضى ليو اليوم التالي في اجتماعات مغلقة مع عمه وغويدو ومجموعة من المحامين، فيما جالت سيلينا في البندقية برفقة دولسي وهاريت. وحاولت مدة ساعة من الزمن أن تتصرّف كما هو متوقع

منها وأن تظهر ابتهاجها، لكن الحقيقة هي أنّ الأزقّة والقنوات الضيقة كادت تخنقها.

قصدت كاتدرائية القديس مارك حيث تزوّج غويدو ودولسي مؤخراً، وحيث سيتزوج ماركو وهاريت قريباً. وخطر لسيلينا بأنها أشبه بالنملة، وهي تتأمل المبنى القديم، الذي يردد صدى خطواتهن وكلامهن. بدا رائعاً، خلاّباً، عظيماً، لكنه يحوّل المرء إلى نملة.

فكّرت في الكنيسة الصغيرة في مورنزا، وسرّها أن قرانها سيعقد هناك، وليس في هذا المكان الذي يسحقها. وشعرت أن دولسي تفهمها، فما إن غادرن الكاتدرائية حتى رمقت وجه سيلينا بنظرة، وقالت: «تعالي معي».

وجرّتها إلى منصّة رسو قريبة حيث ترسو المراكب التي يستخدمها سكان البندقية كباصات. وقالت للرجل الذي يبيع التذاكر: «ثلاث تذاكر إلى الليدو».

ثم وجّهت حديثها إلى هاريت وسيلينا: «ستمضي بقية يومنا على الشاطىء».

ولاحقاً، قطعن الشاطىء ليسبحن في البحر، وقد أحبّت سيلينا ذلك. فهي لم تعرف في حياتها سوى العمل والكدّ، أما اللهو تحت أشعة الشمس وبين الأمواج من دون هدف سوى إمتاع النفس، فهو تجربة جديدة بالنسبة إليها. وبدأت تفكر في أن العيش في البندقية ليس سلبياً من كافة الجوانب، بل يجب إعطاء المدينة حقّها.

عندما انتهى النهار وحان موعد العودة، بدا لها أنّ القصر الضخم يهدّدها، وينتظر وصولها ليبتلعها. في الواقع، كان القصر مضاءً بشكل جيد، فنوافذه الواسعة تسمح بدخول الضوء إليه لكن بدا لها أنه يرمي بظلاله عليها ما إن تدخل.

هناك، وجدت ليو مكتئباً إنما مصمّماً. قال: «ما من وسيلة

للخلاص، أمضيت اليوم كله أبحث في مستقبلي مع محامين ومحاسبين حتى كادت عيناي تصابان بالخول. إنهم يحاولون إيجاد طريقة لكي أتمكن من التعويض على غويدو مادياً، من دون أن أضطر إلى بيع المزرعة».

ـ وهل يمكن ذلك؟

ـ إذا ما قمت بتقسيط المبلغ لسنوات.

ـ وما رأي غويدو بذلك؟

ـ اكتفى بأن هزّ كتفيه بلا مبالاة، وقال: «هذا رائع، مهما يكن». إنه لا يأبه، فهو سعيد لأنه رمى الحمل على كتفي، وكأنه طفل تمكّن من الفرار من المدرسة. لكن خلف هذا السحر الصبياني، هناك رجل أعمال ذكي، فهو يعيش من إيرادات عمله الذي يدرّ عليه ثروة. لكن، عليّ بالطبع أن أقوم بالعمل الصائب بحقه.

ـ وهل ستحتفظ بالمزرعة؟

ـ نعم، لكن حياتنا ستتغيّر.

أطرقت برأسها وقالت: «حياتنا! ربما كان عليّ أن أبقى هنا أيضاً بدلاً من إبعادي».

ـ لا أظن أنّ أحداً سعى لإبعادك، لكننا كنا نتكلّم بالإيطالية، وما كنت لتفهمي الحديث الدائر بيننا.

كان حريّ به أن يقطع لسانه قبل أن يتلفظ جملته الأخيرة، لكنها اكتفت بالابتسام وقالت: «طبعاً».

ـ أعني أن المحامي والمحاسبين لا يتكلمون الإنكليزية؛ لذا، كنا سنترجم...

ـ لا بأس. أنت محق تماماً، فالأمر لا يعنيني فعلاً، أليس كذلك؟

فقال مشدّداً على كلماته: «كل ما يحصل لي يعنيك. أنا آسف يا عزيزتي، ربما كان عليك أن تحضري الاجتماع، رغم المشاكل

العملية».

أومأت برأسها، وهي لا تزال تبتسم مع أنها بقيت تعامله بفتور. لكن اليأس والقلق ظهرا جليين على وجهه، فلم تستطع أن تحتمل. قالت بشكل متقطع وهي تحتضنه: «أنا آسفة، ما كان لي أن أتذمّر وأضايقك فيما أنت حزين».

فردّ وهو يضمّها إليه أكثر: «ابقي معي وحسب، لا تدعيني أخوض هذه المعركة وحدي».

ـ لن أفعل، لن أفعل.

فتنهّد: «لديّ اعتراف. لقد أثار عمي موضوع زفافنا مجدداً. بالنسبة إليه، لا بدّ من أن نتزوّج في كاتدرائية القديس مارك. فقلت له إن القرار قرارك أنتِ».

تمتمت من الابتسام، وهي تقول: «آه، عظيم! ضع اللّوم عليّ! كان حريّ بك أن توافق. لا يمكنك أن تبدأ حياتك الجديدة بمواجهة عائلتك ومحاربتها».

ضمّها إلى صدره بقوّة: «شكراً لك حبيتي. سنرحل من هنا في الغد».

فأصرّت: «ستصبح الأمور على ما يرام عندما نصل إلى البيت».

لكن كلماتها بدت فارغة حتى بالنسبة إليها. كان الفزع يتملّكها، وشعرت بأن فزعه هو يتطابق مع ما يساورها من أحاسيس. وبقيت تكرّر لنفسها بأن كل شيء سيصبح على ما يرام ما إن يخرجا من هنا. كما بذلت جهداً كبيراً لتحافظ على تماسكها فيما كانا يوضبان أغراضهما ليرحلا. بقي أمامهما بضع ساعات، بضع دقائق... لكنها كانت تعلم أنّ ما من مفرّ حقيقي. فسيضطران إلى العودة بعد أسابيع ليوقّع ليو على بعض الوثائق.

قالت له: «عد لوحدك».

ـ أريدك معي. أنتِ قلت بنفسك إن الأمر يعنيك أيضاً.

ـ لكن، لا يتوجّب عليّ أن أوقّع على أيّ وثيقة. سأبقى في المنزل و...

فسألها بلهفة: «وستكونين هنا عندما أعود؟ هل ستفعلين؟».

ـ ط... طبعاً سأفعل.

ردّد بشيء من العناد: «أريدك معي».

وفكرت في أنه شعر بذلك أيضاً. بدا وكأنّ شيطاناً قبيحاً يجلس على الأرض بينهما، مجبراً كل منهما على الابتعاد، من دون الاعتراف أبداً بوجوده.

كانت الكونتيسة تسبّب لها الاضطراب أكثر من غيرها. فإنكليزيتها ضعيفة بحيث لا يمكنهما التواصل إلّا عبر مترجم، ولم تكن سيلينا تعرف كيف تفسّر عدم لباقتها. لعل السبب هو الخجل أو الارتباك أو الرفض والاستكبار. وظنّت سيلينا أن بإمكانها أن تخمّن السبب.

قبل مغادرتهما بدقائق، اقتربت الكونتيسة منها. لم يكن هناك شخص آخر سواهما، ولاحظت سيلينا أنها تمسك بمعجم في يدها.

قالت بصوت أظهر أنها تعيد كلمات حضّرتها وحفظتها: «أنا أتكلم... معك».

حاولت سيلينا أن تبدو متماسكة: «نعم؟».

ـ الأمور... مختلفة الآن... زواجك... علينا أن نتكلم...

فقالت سيلينا بانفعال: «لكني أعرف، ليس عليك أن تخبريني، فأنا أعرف. كيف لي أن أتزوجه؟ أنت لا تريدين ذلك وأنت محقة. فأنا لا أنتمي إلى هذا المكان. أنا لا أنتمي إلى عالمك. أعلم ذلك».

وارتسم على وجه الكونتيسة تعبير مشدود ومتغطرس ثم أخذت نفساً عميقاً. وفي اللحظة التالية، تناهى إليها وقع خطوات على الرخام

فتراجعت.

ظهرت بقية الأسرة وأحاطت بهما. وكان الوداع ومحاولات للابتهاج. كان المركب راسياً ينتظرهما، فصعدا إليه، وراح مجرى المياه يبدو أوسع فأوسع، وكانت هذه بداية المشاكل.

١١ ـ رحلت

مع حلول موعد الحصاد شعر ليو وسيلينا بالارتياح. كانت بساتين الكرمة والزيتون في الوادي كله تعجّ بالنشاط. وراحت العربات تمرّ بين الصفوف لتمتلىء تدريجياً بأفضل ما أنعمت به الأرض. كانت سيلينا حاضرة، برفقة ليو حيناً ووحدها أحياناً أخرى. وتمكنت حتى وهي بمفردها، من التواصل مع العمّال لأن معظمهم يعرف القليل من الإنكليزية وإن بشكل سطحي، كما تعلّمت هي بعض الكلمات التوسكانية التي كانت تلفظها بشكل سيء بما يكفي لتسلّي الجميع. وبهذه الطريقة، عزّزت علاقتها وروابطها بهم.

بدا هؤلاء قلقين أيضاً، هذا ما أحسّت به. إذ كانوا يتوقفون أحياناً ويطرحون عليها الأسئلة، لأنها ستتزوج رب العمل، وبالتالي فلا بدّ أنها تعرفه أفضل من غيرها. كيف يمكن أن تخبرهم أنها تشعر بأنها لم تعد تعرفه أبداً؟ فالشعور التلقائي والعفوي الذي ربطها بليو لم يعد سوى ذكرى سعيدة. كما أنها لم تعد تراه كثيراً، إذ يتم استدعاؤه باستمرار إلى البندقية للبتّ في مسألة أو في أخرى. لقد أقسم على ألّا يغيّر مجرى حياتهما، لكنهما أدركا الآن أنه غير قادر على الوفاء بهذا الوعد. وها هو يُدفع تدريجياً في طريق لا يمكنها أن تجاريه فيها.

كان الظلام قد حلّ عندما وصل ليو من البندقية، فالليالي أصبحت قصيرة. أكل وجبته بتلذّذ، لكن عندما سألته سيلينا عن رحلته لم يجد الكثير ليقوله. وأدركت معنى هذا. إنه ينجرّ شيئاً فشيئاً إلى

عالمهم، ولا يعرف كيف يقول لها ذلك.

بقيا في أحضان بعضهما البعض حتى سألها بهدوء: «هل ستتركينني؟».

وفي الصمت الطويل الذي تلا، شعر بالظلمة تكتسح قلبه وتتغلغله. وأخيراً قالت: «لا، لا أظن ذلك... لكن... عليّ أن أعود لفترة، لفترة قصيرة فقط...».

فقال بصوت مثقل: «نعم، لفترة قصيرة فقط».

أوصلها إلى مطار بيزا في اليوم التالي. وصلا متأخرين، وكان قد نودي على المسافرين إلى دالاس.

قالت: «إذن، من الأفضل أن أسرع. إنهم ينادون على رحلتي».

ـ لا ترحلي! فكلانا يعرف ما سيحصل إذا ما رحلت.

واجهته: «أنا آسفة... آسفة».

وانهمرت الدموع على وجنتيها: «لقد حاولت، لكنني لا أستطيع... ليو، أنا آسفة... آسفة جداً...».

مدّ يده ليمسك بها لكنها انسلّت من بين أصابعه. وعند البوابة، التفتت لتلقي عليه نظرة أخيرة. لم تكن تبكي، لكن اليؤس الذي ارتسم على وجهها عكس بؤسه. وللحظة، ظنّ أنها ستركض عائدة إليه، لكنها اختفت عن ناظريه.. لقد رحلت.

فصل الشتاء كان حافلاً بالأعمال بالنسبة لغويدو الذي انشغل بعرض منتجاته على زبائنه. بعد أسبوعين، سيقيم عرضاً كبيراً بحيث لم يجد صالة له أفضل من قصر كالفاني. عبّر الكونت عن استيائه من هذا العمل الذي لا يليق بالقصر، لكنه منح غويدو موافقته.

ومع ذلك، وفي خضم تحضيراته، وجد غويدو الوقت اللازم ليسافر مع دولسي إلى روما، ليشاركا الأسرة بأخبارهما الرائعة. وبعد أن أمضيا يومين في روما، يحتفلان مع ماركو وهاريت اللذين بدأ العدّ

العكسي لزواجهما، ومع لوسيا التي كانت في أوج سعادتها، توجّها إلى بيللا بوديتا.

قال ليو: «إذن، سأصبح عماً».

إنها المرة الخامسة التي يعيد فيها الكلام نفسه. كان الكل سعيداً بهذا الخبر، أما الوالدان الفخوران فجلسا ووهج السعادة يحيط بهما. لكن دولسي لم تكن مرتاحة في فرحتها هذه، فقد أحسّت وكأن ليو يحاول إجبار نفسه على الاحتفال. وفيما كانوا يحملون الأطباق إلى المطبخ، لأن جينا خلدت إلى النوم، لمست ذراعه وسألته بلطف: «هل من أخبار؟».

هزّ رأسه نافياً. كان في حركته همّ آلمها، لأنه لا يشبه ليو السعيد، البسيط، الذي يعرفه الجميع. فقالت بلطف: «ستعود، لم يمر وقت...».

فردّ ببساطة: «شهر وأسبوع وثلاثة أيام».

ـ هل تعرف أين هي؟

ـ نعم، بدأت أتعقّبها مجدداً عبر الأنترنيت. إنها بخير.

ـ ألم تتحدّث إليها؟

ـ اتصلت بها مرة. كانت لطيفة للغاية.

صوته عكس الأسى الذي يعتمل في صدره وهو يخبر دولسي بكل ما تحتاج لمعرفته عن هذا الاتصال.

قالت دولسي لزوجها وهما يتحضّران للخلود إلى النوم: «لم يكن يعني كلمة مما قاله. الأمور ليست على ما يرام بالنسبة إليه. إنه يعيش في عالم آخر. أخبرتني جينا اليوم أنه يقف أحياناً عند النافذة وينظر إلى الطريق، إلى حيث رآها قادمة في المرة الأولى، كما لو أنه يتوقّع ظهورها مجدداً بسحر ساحر، كما حصل في المرة الماضية».

فردّ غويدو، وهو يصعد إلى السرير ويضمّها بين ذراعيه: «تباً لها!

لِمَ تفعل به هذا كله؟ ما هذه الضجة؟».

نهض وتوجّه إلى النافذة لينظر إلى الحظيرة التي يتناهى منها صوت تمزّق ومناشدة. والتمع ضوء خفيف من إحدى النوافذ. قال وهو يرتدي عباءته: «يبدو أنه ليو. ما الذي يفعله؟ من المفترض أن يكون في فراشه».

توقّفت دولسي بما يكفي لكي ترتدي عباءتها بدورها، ثم تبعت زوجها إلى الخارج ومن ثم إلى الحظيرة حيث كان الباب مفتوحاً. في الداخل، كان التبن مكدّساً حتى السقف العالي الذي يمتدّ تحته إفريز طويل. رأيا سلّماً يستند إلى إحدى الدعائم، وليو في طريقه إلى أعلاه، لكن السلم أقصر من أن يصل إلى الإفريز.

صرخ غويدو: «ليو، ما الأمر؟».

ـ ثمّة بومة عالقة. أظن أنها أذت جناحها.

ـ أليست في أمان في الأعلى؟

وصل صوت ليو إليه ضعيفاً: «لا يمكنها أن تطير لتجلب الطعام، ولديها صغار. سأحاول حملها إلى الأسفل ليكونوا بأمان».

ناداه غويدو محذّراً: «انتبه، ما تفعله خطير أليس لديك سلم أطول؟».

ـ إنه يخضع للتصليح. أنا بخير، لم يبقَ أمامي سوى مسافة قصيرة.

وصل ليو إلى الأعلى، فأصبح على مستوى الطائر. واستطاع غويدو، الذي يراقبه من الأسفل، أن يرى بومة بيضاء في الظلمة.

راح ليو يرجوها: «لا تصعّبي الأمور عزيزتي. بضع دقائق وحسب ونصبح سالمين».

رجته دولسي من الأسفل: «دعها، فما تفعله خطـ... ليو!».

تحركت البومة إلى الخلف ما جعل ليو يندفع خلفها. حصلت الأحداث في رمشة عين. اختلّ توازنه فحاول جاهداً أن يعيد قدمه إلى

أعلى السلم، لكنه لم يفلح. وفي اللحظة التالية، كان يهوي بسرعة بالغة نحو الأرض.

• • •

بعد دالاس، كان من المفترض أن تتوجّه سيلينا إلى أبيلين حيث تبلي دوماً بلاءً حسناً. لكن، إن فوتت الرحلة إلى أبيلين، فيمكنها أن تعود إلى ستيفنفيل، وترى أليوت.

لقد جمعها بجيبرز رباط أعمق مما تصوّرت، لكن أليوت عائلتها. كان معها في الأيام الصعبة حين لم يكن لديها من المال ما يكفي لتأكل، كما أنها تعتبر أنه عرّفها بليو. ولم تشأ أن تعترف لنفسها بأنها فرصة أيضاً لترى أسرة هانوورث وتتحدث معهم عن ليو. فهي تسعى جاهدة لتقوّي نفسها في مواجهة ذكراه. منذ أن اتّخذت قرار إقصائه عن حياتها، أصبحت تعتبر الاستماع بالتحدّث عنه مجرد انغماس في الأهواء والرغبات.

كان الظلام قد حلّ تقريباً عندما وصلت إلى فورتين. وصلت في وقت متأخر عما كانت تنويه لأنها توقّفت مرتين، وهي تحاول أن تقرّر ما إذا أرادت فعلاً أن تكمل طريقها أم لا. كان المنزل مضاءً، لكن عند سماع صوت شاحنتها ازدادت الأضواء، وانفتح الباب الأمامي بقوة وخرج بارتون مسرعاً ليرحّب بها.

قال بلهجة متوترة: «ادخلي بسرعة، فشقيق ليو هنا».

ـ بارتون، هل من خطب ما؟

ـ سيخبرك غويدو، أسرعي!

لم تعلم كيف وصلت إلى الداخل، حيث وجدت غويدو. هبّ واقفاً على قدميه ما إن ظهرت، فكاد قلبها يجلّلها إذ لم ترَ يوماً وجهاً أشدّ شحوباً وقلقاً.

ـ غويدو، ماذا حصل؟

قال: «لقد تعرّض ليو لحادث، إذ سقط...».

وتوقّف عن الكلام وكأنه لا يحتمل متابعة حديثه.

فكررت بألم مبرح: «وماذا؟».

ـ كان في أعلى الحظيرة، يحاول أن يساعد بومة جريحة... أنت تعرفينه.. اختلّ توازنه فسقط أرضاً... من ارتفاع أربعين قدماً.

ـ يا إلهي! أرجوك غويدو، قل لي إنه لا يزال حياً.

ـ نعم، إنه حيّ. لكننا لا نعلم متى سيسير مجدداً.

ارتفعت يداها إلى فمها لتخنق شهقتها. ليو، الرجل الذي لا يجلس إذا استطاع أن يقف، والذي لا يمشي إذا ما استطاع أن يركض؛ ليو في كرسي متحرك أو حتى أسوأ! أشاحت بوجهها لئلا يرى غويدو أنها تكافح لتكبح دموعها.

قال لها: «جئت لأعيدك إلى البيت، فهو بحاجة إليك سيلينا».

ـ طبعاً، لمَ لم تتصل وحسب؟ لكنت في طريقي الآن.

ـ سأكون صادقاً معك وأعترف بأني ظننت أنك لن تتجاوبي بسهولة. جئت لأعيدك بالقوة إذا ما اضطر الأمر.

قال بارتون الذي دخل لتوه: «سترافقك بالطبع. اتركي كل شيء هنا سيلينا. سنعتني بأليوت وجيبرز. اذهبي يا فتاة».

أوصلهما إلى المطار بنفسه، وكان غويدو قد اشترى لها من قبل تذكرة السفر.

قال بابتسامة ضعيفة: «قلت لك إني ما كنت لأقبل الرفض. وقد عنيت ذلك».

ـ أظننت فعلاً أني ما كنت لأرافقك، وليو في حاجة إليّ؟

ـ لا أعتقد أنك كنت لتصدقين إذا ما اكتفيت بالاتصال بك. فالاتصال مجرد كلمات آتية من بعيد.

فقالت برقّة: «لكنك قطعت هذه المسافة كلها من أجلي».

ـ كان عليّ أن أفعل ذلك. لا أعلم كيف سيصبح حاله، لكني أعلم أنّ عليك أن تكوني قربه.

نام غويدو معظم الرحلة، وقد رحّبت سيلينا بالصمت لأنها لم تكن ترغب في الكلام. أفكار كثيرة تشغل فكرها، ولن ترسو على برّ حتى ترى ليو مجدداً.

ومن مطار بيزا، نقلتهما سيارة إلى المستشفى. انغرست أظافر سيلينا في راحة يدها، لشدة خوفها وقلقها مما ستكتشفه. وبدت لها الخطوات الأخيرة القليلة المؤدية إلى جناح ليو وكأنها لن تنتهي. ها هو الباب أمامهما! فتحه غويدو وتنحّى جانباً ليدعها تدخل. التفتت عيناها بسرعة إلى السرير، ثم توقفت مشدوهة. ما من أحد فيه!

ـ سيلينا؟

تناهى إليها الصوت من ناحية النافذة، فالتفتت ورأت رجلاً يقف هناك، مستنداً إلى عكازين وقد لُفّت إحدى قدميه بالجصّ.

ـ سيلينا؟

وخطا نحوها خطوة غير ثابتة وعرجاء، فارتمت في اللحظة التالية بين ذراعيه.

كان عناقهما أخرق، إذ احتضنا بعضهما البعض، من دون أن يتجرأ على إظهار شوقهما الغامر، إلّا أنه أجمل وأرقّ عناق عرفاه. أخيراً، وعندما وجد كلماته، استطاع أن يسأل: «كيف وصلت إلى هنا؟».

ـ ذاك الـ... أخوك...

ضحك ليو وقال: «هل قام بإحدى ألاعيبه مجدداً؟».

ـ أنت!

ومن بين ذراعي ليو الأمينين، التفتت سيلينا إلى غويدو، الذي كان يراقبهما برضا تام، وقالت: «أخبرتني أنه لا يستطيع أن يمشي».

فأجابها غويدو ببراءة: «بالفعل، لا يمكنه أن يسير، ولهذا يستخدم العكازين، لقد كسر كاحله».

ـ كسر...؟

وأضاف غويدو: «لو تعرّض رجل آخر لمثل تلك السقطة لقتل. لكن الشيطان يرعى أتباعه، فقد حطّ ليو على كومة قش».

بعدئذٍ، انسحب بلياقة. قال ليو بصوت متقطع: «لقد عدت إليّ. ضميني إليك بقوّة».

وهذا ما فعلته فأجفل على الفور، لكنه قال: «لا يهم، كل ما يهم هو أنك عدت وستبقين. نعم، ستبقين...».

وأضاف بسرعة قبل أن تتمكّن من أن تجادله: «لن تتركيني ثانية، لا يمكنني أن أحتمل ذلك».

خرج من المستشفى بعد أسبوع، وبعد أن وعد الطبيب بالتوجّه إلى السرير مباشرة والخلود إلى الراحة، إلّا أنه أمضى اليوم في السيارة فيما كانت سيلينا تجول به في أراضيه.

قالت له بحزم لدى عودتهما إلى المنزل: «والآن، ستذهب إلى السرير، كما وعدت الطبيب».

تنهد ليو قائلاً: «ليتنا نتزوج في أسرع وقت ممكن. يمكننا أن نذهب غداً إلى الكنيسة لنناقش الأمر».

وساد صمت مطبق.

ـ حبيبي؟ هل من خطب ما؟

ـ دعنا لا نسرّع الأمور يا ليو.

ـ حسناً، لا يمكنني أن أسرّع أي شيء، أليس كذلك؟ انظري إليّ. عليّ أن أستعيد عافيتي كاملة لأنني أريد أن أستمتع بيوم زفافنا. لكن ذلك لن يتطلب وقتاً طويلاً.

ـ هذا ليس ما عنيته.

واستقامت، متهرّبة من يده التي حاولت أن تعيدها إلى أحضانه.

ـ ليو، أنا أحبك وأرجو أن تصدّقني. وبما أنني عدت فلن أرحل مجدداً. فقد تألمت كثيراً، لكن شيئاً لم يتغيّر، من ناحية أخرى. فما كان خطأً من قبل، لا يزال خطأً الآن. لن أتركك وأرحل، أقسم لك. لكن... لا يمكنني أن أتزوجك.

١٢ ـ هل يجعلها الحب... كونتيسة؟

حضّرت جينا للفطور تشكيلة متنوّعة من الأطباق التي يحبها ليو، وراحت تلحّ عليه ليأكل من كل منها حتى راح يتوسل إليها طالباً الرحمة. قالت سيلينا: «سأقوم أنا بالتنظيف يا جينا، أعلم أن أعمالاً كثيرة تنتظرك».

ـ حسناً، سيدتي.

وأومأت جينا برأسها، ثم مضت في طريقها. قال ليو بعد ذهابها: «تقبلك جينا كسيدة هذا المنزل. لقد قضي الأمر بالنسبة إليها».

ـ جينا تسايرني. فأنا لا أعرف كيف أدير منزلاً، وهي أعلم مني بذلك.

ـ طبعاً، فهذا عملها. وعملك يقضي بأن تتركي كل شيء لها. لكن، ألم تلاحظي أنها تسألك أنتِ في هذه الأيام بدلاً مني أنا؟

وأراح أصابعه على يدها، قبل أن يهمس: «سيدة كالفاني».

ـ ليو... قلت لك الليلة الفائتة...

فتأوّه: «أملت أن يكون مجرد كابوس، فقد تركتني سريعاً...».

ـ لا يمكنني أن أتزوجك. لا يمكنني أن أصبح كونتيسة حتى لو توقفت حياتي على ذلك. لن يعيش عمك إلى الأبد. ماذا سيحدث عندما ترث اللقب؟ ذات يوم، سترغب في أن تحيا حياة كونت بكل ما للكلمة من معنى، البندقية، القصر، المجتمع، وكل تلك التفاصيل.

سألها مشدوهاً: «أنا؟ سيلينا أرجوك، أنا رجل ريفي. لا يمكنك

أن ترى الجياد في البندقية، إذ ستغرق».

لكن محاولة المزاح لم تأتِ بنتيجة. بدا وجه سيلينا عنيداً كما لم يره يوماً، فشعر بالقلق. وقال: «لا أصدق، ظننت أننا اتفقنا على أننا نحب بعضنا البعض وأننا سنبقى معاً إلى الأبد. فهل فاتني شيء ما؟».

ـ لا يا عزيزي، فأنا أحبك. ليو، ليتك تعلم كم أحبك. سأبقى لكن ليس هكذا.

ردّ بحدة: «حسناً، هذا من سوء حظنا، لأن «هكذا» هو ما أنا عليه».

تكلّم بقساوة لم تعهدها فيه من قبل، إلا أنّ أعصابه كانت مشدودة للغاية. كان رأسه يؤلمه وقلبه يؤلمه، ومرونته المعتادة في أدنى مستوياتها. قالت وهي ترفع ذقنها: «لكن، لا يمكن أن يكون ما أنا عليه».

وفجأة، ظهرت الهوّة بينهما مجدداً، وكأنهما لم يجتمعا من جديد.

تجاوزا خلافاتهما ثم توجها إلى البندقية لحضور زفاف ماركو وهاريت. وهناك، ابتسما ولعبا دوريهما بامتياز. كان القصر قد استعاد لتوه حالته الطبيعية بعد معرض غويدو التجاري، ليعود ويغرق تحت سيل ضيوف حفل الزفاف.

وفي كاتدرائية القديس مارك المهيبة، راقبت وصول العروس، وعلمت أنّ هاريت في محيطها الطبيعي هنا. لقد أحاطت بها هالة من الجمال والفخامة وهي تضع يدها على ذراع الرجل الذي تحب والذي كان ينظر إليها بعينين مليئتين بالعاطفة. بدا وكأن سعادتهما تملأ الكنيسة وتمتد لتشمل الحاضرين كلهم.

التفتت سيلينا، فالتقت عيناها بعينيّ ليو. كانت واثقة من أنها قرأت اللوم فيهما، كما لو أنه يتهمها بحرمانه من السعادة نفسها. أشاحت بوجهها. لِمَ لا يستطيع أن يفهم أنّ ما تفعله هو الأفضل

لكليهما؟

وفي اليوم التالي، تصرّف بلطف أثناء وداع العائلة، وغفا طوال الرحلة إلى المنزل فيما قادت هي السيارة. غادرا متأخرين، وكان الليل قد أرخى سدوله عندما وصلا إلى المنزل. وكانت سيلينا قد طلبت من جينا أن تخلد إلى النوم، إلّا أنهما وجدا العشاء في انتظارهما.

وفيما كانا يرفعان الأغطية عن الأطباق، سألته: «لقد أخبرتهم، أليس كذلك؟».

ـ لم أكن بحاجة إلى ذلك، فقد اكتشفوا الحقيقة بأنفسهم. ما انفكّوا يسألونني عن موعد زفافنا، ويمكن للمرء أن يتملّص من السؤال مرة، لكن إذا ما تكرّر الأمر فسيخمّنون الحقيقة.

ـ إذاً، أصبحوا يعرفون. لعل هذا أفضل.

ـ سيلينا، ألم يعني لك ما حصل هناك أيّ شيء؟ ألم تري ماركو وهاريت، وكيف التزما تجاه بعضهما البعض؟ الزواج مهم لهذا السبب، فمن دونه، ما من التزام. ظننت أننا ملتزمان تجاه بعضنا البعض، لكنك تقولين لي العكس الآن. ما هو المستقبل الذي ينتظرنا؟

ـ سنصنع مستقبلنا على طريقتنا...

ـ أتعنين على طريقتك؟ أحبك وأريدك زوجة لي.

قالت بيأس: «هذا مستحيل».

ـ إنه مستحيل إذا ما جعلته كذلك.

ثم أخذ نفساً عميقاً قبل أن يردف: «المستحيل بالنسبة إليّ هو أن نستمر على هذا الحال».

ـ ما الذي تقوله؟

ـ أقول إني أحبك وإني فخور بك. أريد أن أخرج من الكنيسة وأنت إلى جانبي، وأن أخبر العالم بأسره أنك المرأة التي اخترتها والتي اختارتني. أملت أن ترغبي في الشيء نفسه، لكن إذا لم...

ـ هيا، أكمل...

قال، وكأن الكلمات تُنتزع منه رغماً عنه: «إذا لم ترغبي في الزواج، فلن يكون لدينا شيء. يمكنك أن تعودي إلى بلادك أيضاً».

ـ أتطردني يا ليو؟

وفجأة، ضرب الطاولة بيده. أثارت هذه الحركة صدمتها، لا سيّما وأنها صادرة عن رجل رقيق ولطيف كليو. ثم صاح بصوت عالٍ: «لا، تباً! أريدك أن تبقي هنا. أريدك أن تحبيني وأن تتزوجيني وتحملي أطفالي. أريد أن أمضي بقية حياتي معك. لكن، لا بدّ أن تتزوج. فهل يبدو هذا وكأني أطردك؟».

ـ يبدو وكأنك تعطيني إنذاراً.

ـ حسناً، إنه إنذار. إن كنت تحبيني عُشر ما تدّعينه فتزوّجيني. لا يمكنني أن أقبل بأيّ تسوية في هذا الموضوع، فهذا مهم جداً بالنسبة إليّ.

ـ ولكن، ماذا عمّا هو مهم بالنسبة إليّ أنا؟

ـ لم أستمع إلّا إلى ما هو مهم بالنسبة إليك وحاولت أن أفهم، رغم أنّ تفهّمي جعلني أعيش في الجحيم. والآن، حان دوري لأقول لك ما أريده.

حلقت فيه، في الرجل الذي ظنّت أنها تعرفه قلباً وقالباً. لقد فقد ليو أعصابه أخيراً، ليس بالطريقة شبه المزلية التي رآها من قبل حين راح يصيح غيظاً، بل أظهر غضباً عميقاً وحقيقياً. كانت عيناه لامعتين وغاضبتين كما لم ترهما يوماً. بدا وكأن القطعة الأخيرة من أحجية شخصيته وجدت مكانها الطبيعي.

وهذا الشعور استمر حتى عندما مرّر يده في شعره، وقال: «أنا آسف، لم أكن أقصد أن أصرخ بوجهك».

فردّت بصدق: «لا مانع لديّ في أن تصرخ، فبإمكاني أن أصرخ

بدوري، لأني أجيد ذلك».

قال بصوت مرتعش: «نعم، أعلم ذلك. وأنا لا أمانع أيضاً. ما لا أتحمّله هو الصمت والبعد».

وافقته الرأي: «لقد كنّا في هذه الآونة».

وخطت خطوة نحوه، كما تحرك هو في الوقت نفسه، فارتميا في أحضان بعضهما البعض. كان عناقاً طويلاً ومريحاً، فشعرت أنّ مخاوفها ومشاعرها المتوترة خفّت. فقالت: «إياك أن تخيفني هكذا مجدداً، ظننت أنك تعني ما قلته فعلاً».

أطلق سراحها: «لقد عنيت ذلك».

تراجعت خطوة إلى الخلف: «لا، ليو، أرجوك... اسمع...».

قال بحزم: «استمعت بقدر ما استطعت، لا يمكنني أن أستمر على طريقتك. هنا...».

وأشار إلى قلبه قبل أن يضيف: «... أنت زوجتي بالفعل. لا يمكنني أن أعيش بطريقة مختلفة خارجياً. لا يمكنني أن أعيش حياتين».

ـ وستدعني أرحل فعلاً؟

ـ عزيزتي، إذا حاولنا أن نستمر على طريقتك فستنفصل عاجلاً وليس آجلاً، وسنفترق بائسين. لن يتبقّى لنا سوى الذكريات المرّة. من الأفضل أن نفترق الآن، فيما لا يزال لدينا الحب لنتذكّره.

أجهشت سيلينا بالبكاء وقالت: «ماذا سنفعل؟».

ـ أولاً، سنتناول بعض الطعام ثم سنتناقش كشخصين متحضّرين. إلا أنهما لم يتمكّنا من التحدّث. فقد حدد كل منهما موقفه واعتبر أنّ الآخر عديم التأثر. ماذا بقي ليُقال بعد هذا؟

شعرا بالراحة حين لجأ كل منهما إلى غرفته. لكن، وبعد أن استلقت مستيقظة لساعات، ارتدت سيلينا ملابسها، ونزلت إلى الطابق السفلي. لم تضيء الأنوار، بل راحت تسير من غرفة إلى أخرى بصمت

وهي تتساءل إن كانت سترحل عن هذا المكان قريباً. من السهل أن تعود إلى ليو وترمي في أحضانه وتعده بالزواج، فأيّ شيء أرحم من تركه والرحيل عنه. لكن اقتناعها بأنهما سيدفعان غالياً ثمن سعادتهما المؤقتة، أثقل كاهلها. يمكنها أن تخاطر بنفسها ولكن ليس به. وأخيراً، جلست على الأريكة قرب النافذة، ووضعت يديها خلف رأسها ثم استغرقت في النوم بعد جهد جهيد.

أيقظتها يد هزّت كتفها. قال ليو: «عزيزتي، استيقظي».

سألته بتصلب: «كم الساعة الآن؟».

ـ إنها السابعة صباحاً، لدينا زوّار، أنظري.

خرجا إلى الفناء للقاء السيارتين اللتين تصعدان المنحدر والمعروفتين جيداً من قبلهما. قالت: «إنهم أفراد الأسرة. لكننا ودّعناهم بالأمس فقط. لِمَ تعودنا إلى هنا؟».

توقّفت السيارتان، وخرج غويدو ودولسي أولاً. ومن السيارة الثانية، ترجّل الكونت والكونتيسة، ما فاجأهما.

أعلن الكونت كالعادة: «نحن هنا لحل مسألة هامة جداً. أصرّت زوجتي على أن تتحدث إلى سيلينا. ونحن نسافر كحاشية لها وحسب».

قال ليو: «ادخلوا، فالطقس بارد في الخارج».

في الداخل، قدّمت لهم جينا القهوة فيما كانت سيلينا لا تزال تحاول اكتشاف ما يجري. لِمَ تريد هذه المرأة رؤيتها؟ لِمَ تنظر إليها بهذا الإلحاح؟.

قالت: «هلّا أخبرني أحدكم ما يجري؟».

فقالت ليزا ببطء: «جئت إليك لأن ثمة أشياء...».

ترددت وعبست ثم أضافت: «... أشياء لا يمكن أن يقولها أحد سواي».

قالت دولسي: «نحن هنا لنساعدها إذا ما تعثرت لغتها. لقد

عملت جاهدة لتعلم من أجلك، وتريد أن تقول ما لديها بنفسها».

عندئذ، تدخّلت ليزا: «حاولت من قبل، لكن حينذاك... لم أجد الكلمات... وأنت لم تستمعي».

قالت دولسي: «عندما زرت البندقية للمرة الأولى، حاولت ليزا أن تتحدّث إليك، لكنك هربت».

فردّت سيلينا: «لم تكن بحاجة لأن تقول لي إني الشخص غير المناسب للبو، فأنا أعرف ذلك».

قاطعتها ليزا بحزم: «لا، لا، لا! عليك أن تتكلمي أقل وتصغي أكثر. أفهمت؟».

ردّ ليو على الفور: «نعم».

ابتسمت سيلينا على نحو غير متوقّع وردّت: «نعم».

تكلمت ليزا بعنف: «حسناً، جئت لأقول... إن ما تفعلينه رهيب... كما فعلت أنا. يجب ألا تفعلي».

سألتها سيلينا بحذر: «ما الأمر الرهيب الذي أفعله؟».

قال غريدو: «بعدما أخبرنا به ليو، عقدنا اجتماعاً عائلياً الليلة الماضية ورأينا أن علينا أن نأتي إلى هنا ونزرع في رأسك بعض التعقّل. لكن ليزا كانت أكثرنا اندفاعاً».

أعلنت ليزا بحزم: «والآن ستأتين معي».

ووضعت فنجان القهوة من يدها ثم توجّهت نحو الباب.

سألها ليو: «هل أستطيع أن أرافقكما؟».

نظرت إليه ليزا: «وهل ستبقى هادئاً وساكتاً؟».

فردّ بخنوع: «نعم».

تقدّمتهما قائلة: «يمكنك أن تأتي».

سألته سيلينا: «ما الذي تفعله؟».

ـ أظن أني أعرف. يمكنك أن تثقي بها.

تبعهما إلى السيارة وساعد ليزا على الصعود إليها، فيما صعدت دولسي خلف المقود.

قالت ليزا: «توجّهي إلى مورنزا، ومن ثم... أكملي حوالي ميلين حتى... المزرعة».

اتبعت دولسي التعليمات، وما لبثوا أن أصبحوا في الريف، تحيط بهم الحقول التي تتخلّلها بين الحين والآخر بعض المنازل الصغيرة. وتبعهم الآخرون في السيارة الثانية.

قالت ليزا وهي تشير إلى إحدى المزارع: «هناك».

استدارت دولسي وقطعت المسافة القصيرة المؤدية إلى مجموعة الأبنية. رفع رجل في متوسط العمر رأسه ورحّب بليزا. لم تسمع سيلينا الكلمات التي تبادلاها. قادت ليزا المجموعة التي تجاوزت المنزل واتّجهت إلى مجموعة من المباني الخارجية، ومن ثم إلى زريبة للأبقار. كان البناء كبيراً، مليئاً بالحيوانات، إذ وصلوا في موعد الحلب. استدارت ليزا وواجهت سيلينا: «لقد ولدت هنا».

عبست سيلينا: «تعنين... في المنزل؟».

ـ لا، أعني هنا، في هذه الغرفة حيث نقف الآن. كانت والدتي خادمة وقد عاشت هنا مع الحيوانات. في تلك الأيام... كان هذا يحصل أحياناً. كان الفقراء يعيشون على هذا النحو. وقد كنا فقراء، فقراء جداً.

نظرت سيلينا من حولها بعجز: «ولكن...».

ـ لم أولد سيدة مجتمع، ألم تكوني على علم بذلك؟

ـ نعم، علمت أنك لم تولدي وأنت تحملين لقباً، لكن... هذا...

أومأت ليزا برأسها: «نعم، هذا». في تلك الأيام، كان ثمة... هوّة سحيقة بين الغني والفقير. لم تكن أمي متزوجة، لم تقل لي يوماً

اسم والدي، وقد لحق بها العار. حصل هذا منذ سبعين عاماً، أتفهمين؟ لم تكن الأحوال كما هي الآن. عندما كنت طفلة... توفيت والدتي فوضعوني في المنزل لأعمل. كانوا يقولون لي دوماً... إني محظوظة لأني أحصل على الطعام والعمل، فأنا طفلة غير شرعية، ولا أتمتع بأيّ حقوق، ولم أتعلّم يوماً.

«لكن ماريا رينوتشي أنقذتني. فهذه الأراضي... كانت مهرها عندما تزوّجت الكونت انجيلو كالفاني. لقد رثت لحالي وأشفقت عليّ... فأخذتني معها إلى البندقية. وهكذا، تعرّفت إلى عزيزي فرانشيسكو».

وتورّد وجهها فيما التفتت إلى الكونت الذي كان يتأمّلها مبتسماً. تابعت وهي تبتسم له بدورها: «ليتك رأيته حينذاك! كان شاباً وسيماً... أحبني وأنا أحببته أيضاً... لكن... لا فائدة. عليه أن يتزوّج... سيدة تليق به. طلب مني الزواج، لكني رفضت. كيف يمكن له أن يتزوجني؟ وبقيت أرفض أربعين سنة. ثم... فهمت.. أني أقترف خطأ فظيعاً. والآن، جئت لأقول لك... لا ترتكبي الخطأ نفسه».

تمتمت سيلينا: «لكن ليزا... أنت لا تعلمين...».

فقالت ليزا بصراحة تامّة: «لا تكوني غبية. بالطبع، أعلم. اسمعي ما سأقوله. الناس يعتقدون أنّ... لعب دور ستدريللا أمر رائع. لكني أقول العكس، فهو أحياناً.. عبء ثقيل».

ارتاحت سيلينا لأنها وجدت أخيراً شخصاً يفهم مشاعرها، وقالت: «نعم، نعم».

لكن ليزا قالت بقوة: «لكن، إن كان هذا قدرك، فعليك أن تتقبّلي العبء... وإلّا فسوف تفطرين قلب الأمير الساحر».

وأمسكت يد زوجها الذي كان ينظر إليها بعينين تمكسان عالماً من

الحب. ثم تابعت كلامها بحزن: «الناس ينظرون إلينا فيخطر لهم أنّ قصتنا رومانسية لأنّ نهايتها كانت سعيدة، إلّا أنهم لا يرون ما تحمله هنا...».

وأشارت إلى صدرها قبل أن تردف: «... ما آسف له هو أنّ حبنا لم يكتمل إلّا في النهاية. كان بإمكاننا أن نسعد منذ وقت طويل، كما كان بإمكاني أن أرزق بأطفال. لكني أضعت تلك السنوات كلها لأني أعطيت الأهمية لأمور لا تستحق تلك الأهمية التي منحتها إياها».

تقدم ليو بهدوء حتى وقف إلى جانب سيلينا، ولاحظت ليزا حركته فابتسمت. بقيت لديها كلمة أخيرة تقولها لسيلينا، وقد بدأت الآن تجد كلماتها بسهولة كما لو أنها عثرت على المفتاح.

ـ لم يقدّرك أحد في حياتك كلها، ولهذا لم تتعلّمي أن تقدّري نفسك. وبالتالي، كيف يمكنك أن تفهمي ليو، الذي يقدّرك أكثر من أي شيء آخر في العالم؟ كيف يمكنك أن تتقبّلي حبه عندما تعتقدين أنك لا تستحقين الحب؟

سألت سيلينا مشدوهة: «هل هذا ما أعتقده؟».

ـ هل أحبك يوماً أيّ شخص آخر؟

هزّت سيلينا رأسها: «لا، أنت محقة. كبرت وأنا أعتقد أنه لا يحق لي هذا القدر...».

رأت ليزا تومىء برأسها بخفّة مثل المراتين فقط: «... وعندما أحبني ليو، ظللت أفكر في أنه ارتكب غلطة وأنه سيستيقظ سريعاً ليدرك أنّ هذا أنا ليس إلّا».

ردّدت ليزا: «أنت ليس إلّا.. المرأة التي يحب، المرأة الأولى التي يطلب يدها للزواج. وأظن أنك المرأة الأخيرة. لا تؤذيه كما أذيت حبيبي فرانشيسكو، بل ثقي به، ثقي بحبه لك، وثقي بحبك له. لا تفترقي خطئي وترمي سعادتك بعيداً حتى يكاد يفوت الأوان».

التفتت سيلينا إلى ليو ووجدته ينظر إلى وجهها بقلق. صدمها هول ما كادت تفعله به، فلم تستطع كبح الدموع التي انهمرت على وجنتيها.

قالت بصوت متقطع: «أحبك، أحبك كثيراً... ولم أفهم يوماً أيّ شيء».

فقال بحنان: «ما كنت تعرفين معنى العائلة وحسب. والآن، أصبحت تعرفين».

الكل يريدها. العائلة كلها فتحت ذراعيها وقلبها لها، هي التي لم تعرف يوماً أشياء يمكن أن تتذكرهم... أو يرغبون فيها.

وأضاف ليو على الفور: «تزوجيني، دعيني أسمعك توافقين».

لم تستطع أن تتكلم، فاكتفت بأن أومأت بقوة فيما أخذها بين ذراعيه وضمّها إليه. أحنى رأسه بحيث أراح ذقنه على رأسها. إنها كنزه المفقود والذي عثر عليه من جديد. فقال: «لن أدعك ترحلين مجدداً».

حدّدا موعد الزفاف في أقرب فرصة ممكنة، قبل انتهاء الشتاء. وكان الكونت كالفاني سعيداً جداً بأن يرحب بسيلينا كفرد من الأسرة بعد أن أذعن أخيراً بالنسبة لكاتدرائية القديس مارك وأقرّ بسرور بأن كنيسة القرية في مورنزا هي المكان المناسب لهذا الزفاف. حجزا الموعد في الكنيسة الصغيرة، وأصابت المنزل حمى التنظيف استعداداً لاستقبال الضيوف.

من جهة العريس، ستحضر أسرة كالفاني كلها التي أصبحت عائلة سيلينا أيضاً. كما دعت سيلينا «بين»، الصديق الوفي الذي ساعدها كثيراً في الماضي، وزوجته مارثا، وأرسلت لهما تذكرتي سفر. ويوم وصولهما، ذهبت مع ليو إلى المطار لاستقبالهما. وما كان العرس ليكتمل من دون حضور أسرة هانووروث كلها، باستثناء بريل، الذي وجد ما يشغله. ذهب ليو وحده لاستقبالهم، وترك سيلينا مع بين ومارثا ليستعيدوا ذكريات الماضي.

ومع انقضاء النهار، تعاظم شعور سيلينا بأن ثمة سرّ يعرفه الجميع باستثنائها. كانت الخادمات يقهقهن في الممرات ليختفين عند اقترابها. كما سألتها جينا عما إذا كان ليو قد قدّم لها هدية الزفاف.

أجابت سيلينا بارتباك: «ليس بعد».

فأشارت جينا: «ربما تحصلين عليها اليوم».

ثم ابتعدت مبتسمة. ومرّت الساعات، وبدأت تشعر بالتوتر. كان لا بدّ أن يصلوا إلى المنزل الآن. وفي أواخر بعد الظهر، جاءت جينا تبحث عنها.

ـ أظن أن عليك أن تنظري من النافذة يا سيدتي. فثمة شيء في الخارج عليك أن تريه.

توجّهت سيلينا وقد تملّكتها الحيرة إلى النافذة لتنظر إلى الطريق المؤدي إلى القرية، فرأت مجموعة صغيرة تتجه ببطء نحو المنزل. عرفت بارتون وداليا وبقية أفراد الأسرة. لكنها عرفت أيضاً شكلاً ما كانت تجرؤ على أن تأمل رؤيته مجدداً.

صرخت: «اليوت!».

وخرجت مسرعة من المنزل.

كان ليو يسير في الطليعة وقد أمسك بلجام أليوت، فابتسم ابتسامة عريضة عندما رآها. كان الكل يبتسم حين اقتربت على عجل ووضعت يديها حول عنق الجواد العجوز.

التفتت نحو أسرة هانووروث: «أنتم... أتيتم به معكم؟».

فقال بارتون بابتهاج: «طبعاً، حبكنا أنا وليو الموضوع معاً، وأقسم على ألا يدعك تعلمين».

وتذكّرت سيلينا أصول حسن التصرّف، فعانقت داليا وبارتون ومن ثم الفتاتين. كانت لتعانق جاك أيضاً لكنه أوقفها عند حدّها بعد أن رمقها بنظرة صبيانية. وانهمرت الدموع على خدّيها وهي تقول:

«أليوت، أليوت...».

وقال ليو: «لهذا السبب تأخرنا. تطلّب إنزاله من الطائرة وإنهاء المعاملات الرسمية وقتاً. لم أرَ في حياتي هذا القدر من الوثائق، لكننا تمكنّا في النهاية من إدخاله. على فكرة، العرض لا يزال ساريا بالنسبة إلى جيبرز».

وافقت سيلينا: «من الأفضل أن أقبل بالعرض، فهو جواد ممتاز للسباق. أما أليوت...».

وقبّلت أنف الجواد مجدداً قبل أن تضيف: «... فيحتاج إلى الراحة والحب فقط».

وصل أفراد أسرة كالفاني في اليوم التالي، وانسجموا على الفور مع أسرة هانوورث. وفي الحفل الصاخب الذي أقيم بعد وصول الجميع، لاحظت سيلينا أنّ ليزا تبدو متعبة فرافقتها إلى الطابق الأعلى لتستريح في سريرها.

كان الزفاف مناسبة عائلية حقيقية، لكن العائلة ضمّت هذه المرّة أبناء القرية كلهم. بعد أن خرج ليو مع سيلينا من الكنيسة ودارا حول بركة البط ثلاث مرات، كما تجري العادة في مورنزا، شرعا في صعود التلة، وقد تبعهما كل من يستطيع السير من أبناء القرية ومن المستأجرين.

عند بوابة المزرعة، هلّل لهم الحشد قبل أن يتوجّه أبناء القرية إلى القاعة العامة حيث أعدّت لهم مأدبة.

تساءلت سيلينا عما كان سيحصل لو لم يعدها غويدو بالحيلة إلى إيطاليا. ومع تراجع صخب الحفلة، أسرّت لزوجها تذكّره: «أعتقد أننا ندين بالكثير لغويدو. لو لم يتمكّن من حبك قصة جيدة، لما كان أي منّا هنا».

- أظنك محقة.

قال غويدو وكان التعاس قد بدأ يداعب أجفانه ويخفض دفاعاته وإلّا لما تلفّظ بالكلمات التالية: «كلنا نتمتع بهذه المؤهلات الصغيرة: اختراع القصص، التزوير...».

غويدو... سيد الخدع والسحر، رجل الأقنعة والأوهام، ابن البندقية!

صاح ليو: «آه، لا! لم تفعل هذا بي! قل لي إنك لم تفعل».

نظر إليه غويدو ببراءة ورقّة: «من؟ أنا؟».

- نعم، أنت يا أخي! أيها المخادع، الجبان، العديم الضمير...

ووضع كأس العصير من يده ثم راح يتقدم من غويدو الذي تراجع حذراً.

- ليو، لا تُقدم على شيء ستندم عليه...

- لن أندم على أيّ شيء أفعله بك.

لكنه توقّف بعد أن سمع صوتاً لم يتوقع أيّ من الحاضرين سماعه في تلك اللحظة. فقد انفجرت سيلينا بالضحك، فاسترخى الآخرون وبدأوا يبتسمون مع تردد صدى قهقهاتها في الغرفة.

- سيلينا، حبيبتي...

غصّت وهي تقول: «آه، يا إلهي! أكاد أموت من الضحك! لم أسمع نكتة أفضل من هذه منذ سنوات».

- حسناً، يسرّني أن تجدي الأمر مسلياً...

- وجدت منظرك مسلياً يا عزيزي.

ووضعت يديها حول وجهه ثم عانقته، وهي لا تزال تضحك.

مرحها كان معدياً، فلم يستطع أن يمنع نفسه من أن يشاركها الضحك رغم استيائه. وسألها: «لكن، ألا تدركين ما فعله غويدو بنا؟ لقد زوّر الدليل».

- هل فعل هذا حقاً؟ هل أنت واثق من ذلك؟ فهو لم يعترف

بفعلته.

فأشار ماركو وهو يرمق غويدو بنظرة تقدير: «ولن يخبرك أبداً، بطريقة أو بأخرى. لكني أراهن أنه بريء، علماً أنه يؤلمني أن أجده بريئاً من أيّ ذنب».

مرّر غويدو إصبعه في ياقته. وتابع ماركو كلامه: «أظن أنّ ما حصل هو كالتالي: لقد سمع بزواج فينللي في إنكلترا، فاستخدم جيشاً من التحريين ليكتشف حقيقة الأمر. على أيّ حال، لدينا نحر خاص في العائلة».

والتفت إلى دولسي بعينين ضاحكتين، ثم أضاف: «أجرؤ على أن أقول إنها عرّفته ببعض منهم؟».

أمسك غويدو بيد زوجته وهمس: «لا تقولي أيّ شيء».

فقال ماركو: «إنها نصيحة حكيمة للغاية. حسناً، هذه هي نظريتي في المسألة».

سأله ليو: «أتظن أنّ الوثيقة حقيقية وشرعية؟ وليست تزويراً؟».

ـ أشك في أن يكون قد زوّر أيّ شيء، علماً أنه سيدعك تعتقد ذلك لكي يضايقك ويثير غضبك.

قال ليو: «سأحطّم كل عظمة من عظام جسده».

هبّ غويدو واقفاً وقال: «لا تستخدم العنف. تذكّر أني سأصبح أباً».

فهمس ماركو في أذن ليو: «وهنا، يمكنك أن تثأر منه».

ـ ماذا تعني؟

طرح الأخوان السؤال نفسه في آنٍ واحد.

ـ يميل الأولاد إلى سلوك السبيل المعاكس لسبيل أهلهم. وقد يندم غويدو إذا ما رغب ابنه في كل ما تخلّى عنه هو بسهولة. وعندما يحلّ هذا اليوم، سيضطر إلى تقديم بعض التفسيرات.

ذكّره ليو: «لكنك قلت للتو... إنه لم يزوّر الدليل».

ـ حسناً، لا أظن أن أي شخص حتى غويدو قد يذهب إلى هذا الحدّ.

تأوّه ليو: «كيف لنا أن نتأكد؟».

قال ماركو: «هذا سهل، راجع السجلات الإنكليزية، وستجد الجواب هناك».

فقالت سيلينا: «لكن، دعونا لا نفعل ذلك. دعونا لا نعرف، وإلّا سيصبح الأمر مملاً».

سألها ليو بحنان: «هل ستفهمك يوماً؟».

فردّت ببساطة: «لكنك تفهمني. لطالما فهمتني، حتى حين لم أكن أفهم نفسي».

لمست وجهه وقالت بنعومة: «لقد حصلت على الجائزة، وكدت أتخلّ عنها. لكني لن أتخلّ عنها مجدداً، لن أتخلّ عنها لبقية حياتي، أبداً، أبداً».

سأبقى وحدي

سيلينا فتاة قوية ومستقلة . ما تكسبه من مال يغطي ضروريات حياتها . عندما أحبت ليو كالفاني كانت تعتقد أنه إنسان بسيط يعيش في الريف الإيطالي . وأنه مثلها . . . وحيد .

لكن ما إن وصلت إلى منزله حتى اكتشفت أنه المنزل الأفخم في المنطقة وأنه يملك قريتين وأن عمه كونت .

ليس هنا ليو الذي أحبته .

ليو سيصبح يوما ما كونتا . . إنه أسوأ كابوس بالنسبة إلى سيلينا . إذ لا يمكنها أبدا أن تصبح كونتيسة . . .